كتابُ مايكل هاملتون مورغان "التاريخُ الضائعُ لأعلامِ المسلمينَ": مكةُ المكرَّمةُ وشبهُ الجزيرةِ العربيَّة بينَ الأعوامِ 570–732م دراسةٌ وترجمةٌ وتعليقٌ

Michael Hamilton Morgan's The Lost History of Muslim Personalities: Mecca and the Arabian Peninsula between the years 570-732 A.D. Translation, Review and Commentary

Prof. Dr. Fuad Abdul Muttaleb
English Literature Department, Faculty of Arts, Jerash University - Jordan
E-mail: fuadmuttalib@jpu.edu.jo ORCID: https://orcid.org/0000-0002-1561-5089

Abstarct

Michael Hamilton Morgan's English book "A Lost History: The Enduring Legacy of Muslim Scholar, Thinkers, and Artists" was published in 2008 in Washington by the well-known National Geographic Society. And it was published in translation into some foreign languages, including Arabic, under the title "The Lost History of Muslim Scholars" in Amman by Ministry of Culture in 2016. This book monitors the importance of scientific centres, Arab and Islamic personalities and works that contributed to the global civilization achievement. Here, the description of the Muslim civilizational achievement comes as "lost" - not in the narrative sense - but in the sense that few people, especially in the West, know very little about this subject, or even they know that many aspects of Western society go back to their origins, to Islamic sources. What increases the seriousness and importance of the topic is the presence of researchers who ignore this achievement, exclude it, or refrain from engaging in it for several different reasons, to the point of making the Islamic civilization widely absent and turning it into a mere fringe in the relevant books, especially the Western school and university curricula. This book presents an attempt to rediscover and celebrate Islamic civilization by Muslims and non-Muslims alike, especially in the West. We deal everyday with computers, track spaceflight, and communicate with the physical sciences, mathematics, medicine, engineering, music, literature, arts, architecture and spirituality, but many, including contemporary Muslims, are unaware that these fields of knowledge have been based for more than a thousand years on the achievements of Muslim scholars, thinkers and artists. This article includes a comprehensive review of this book with a general evaluation overview, referring to the Arabic edition of the book, as well as a translation of the sections written about Mecca and the Arabian Peninsula between the years 570-732 AD. This is followed in the end with references to the most important works that have been used or referred to in this article.

Key words: *Michael Hamilton Morgan, Lost History, Muslim Personalities, History of Islamic Civilization.*

ملخص

صدرَ كتابُ مايكل هاملتون مورغان "تاريخٌ ضائعٌ: التراثُ الدائمُ للعلماءِ والمفكِّرينَ والفنَّانينَ المسلمينَ" بالإنجليزيَّةِ عام 2008م في واشنطن عنِ الجمعيَّة الجغرافيَّةِ الوطنيَّةِ المعروفةِ. وصدرَ مترجَمًا إلى بعضِ اللُّغاتِ الأجنبيَّةِ من ضمنِها العربيَّةُ تحتَ عنوانِ: "التاريخُ الضائعُ لأعلامِ المسلمينَ" في عمَّانَ: وزارةُ الثقافةِ، عام 2016م.

يرصدُ هذا الكتابُ أهميَّةَ المراكزِ العلميَّةِ والشَّخصيَّاتِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ والأعمالِ التي أسهمتْ في الإنجازِ الحضاريِّ العالميِّ. ويأتي هنا وصفُ الإنجازِ الحضاريِّ المسلمِ بأنَّهُ "ضائعٌ"– لا بالمعنَى القصصيِّ– بل بمعنى أنَّ قلةً من الناسِ في الغربِ خصوصاً لا يعرفونَ إلا النزْرَ اليسيرَ عنْ هذا الموضوعِ، حتَّى إنَّهُمْ يعرفونَ أنَّ جوانبَ كثيرةً من المجتمعِ الغربيِّ ترجعُ في أصولِها إلى مصادرَ إسلاميَّةٍ. وممَّا يزيدُ من جِديَّةِ الموضوعِ وأهميَّتِهِ وجودُ باحثينَ يتجاهلونَ هذا الإنجازَ أو يستبعدونَهُ أو يُحجِمونَ عنِ الخوضِ فيه لأهداف مختلفةٍ، إلى حدِّ جعلِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ مغيَّبةً على نطاقٍ واسعٍ وتحويلِها إلى مجرَّدِ هامشٍ في الكتبِ المعنيَّةِ وخصوصًا المناهجُ المدرسيَّةُ والجامعيَّةُ الغربيَّةُ. ويقدِّمُ هذا الكتابُ محاولةً من أجلِ إعادةِ اكتشافِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ والاحتفاءِ بها من قِبَلِ المسلمينَ وغيرِهِمْ على حدٍّ سواءٍ، وخصوصاً في الغربِ. فنحنُ نتعاملُ يومياً مع الحواسيبِ الإلكترونيَّةِ ونتتبَّعُ رحلاتِ الفضاءِ ونتواصلُ مع العلومِ الفيزيائيَّةِ والرياضيَّاتِ والطبِّ والهندسةِ والموسيقى والآدابِ والفنونِ والعمارةِ والروحانيَّاتِ، بيدَ أنَّ الكثيرينَ، بما فيهمُ المسلمونَ المعاصرونَ، يجهلونَ أنَّ هذه الحقولَ المعرفيَّةَ استندتْ منذُ أكثرَ من ألفِ عامٍ إلى إنجازاتِ العلماءِ والمفكِّرينَ والفنَّانينَ المسلمينَ. وتتضمَّنُ هذه المقالةُ عرضًا وافيًا لهذا الكتابِ مع نظرةٍ تقويميَّةٍ عامَّةٍ، وتشيرُ الإحالاتُ فيها إلى الطبعةِ العربيَّةِ من الكتابِ، فضلاً عن ترجمةِ ما تضمَّنَهُ من معلوماتٍ حولَ مكَّةَ المكرَّمةِ وشبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ بينَ الأعوامِ 570– 732م. ويتبعُ ذلك في النهايةِ ثبتٌ بالمراجعِ لأهمِّ الأعمالِ التي استُعمِلتْ أو أُشِيرَ إليها في هذه المقالةِ.

كلماتٌ مفتاحيَّةٌ: مايكل هاملتون مورغان، التاريخُ الضائعُ، أعلامُ المسلمينَ، تاريخُ الحضارةِ الإسلاميَّةِ.

صدرَ كتابُ مايكل هاملتون مورغان "تاريخٌ ضائعٌ: التُّراثُ الدائمُ للعلماءِ والمفكِّرينَ والفنَّانينَ المسلمينَ" عام 2008م في واشنطن عنِ الجمعيَّةِ الجغرافيَّةِ الوطنيَّةِ المتميّزةِ. ويبيّنُ هذا الكتابُ أهميَّةَ المراكزِ العلميَّةِ والشَّخصيَّاتِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ والأعمالِ التي أسهمتْ في الإنجازِ الحضاريِّ العالميِّ. وربَّما كانَ من الصحيحِ وصفُ الإنجازِ الحضاريِّ المسلمِ بأنَّهُ "ضائعٌ" أو "مُضيَّعٌ" –لا بالمعنى القصصيِّ المشوِّقِ مثل: الكنزِ المفقودِ أوِ الأسطوريِّ مثلِ أطلانطس القارَّةِ المفقودةِ– بل بمعنى أنَّ قلةً من الناسِ في الغربِ خصوصاً لا يعرفونَ إلا النزْرَ اليسيرَ عن هذا الموضوعِ، حتَّى إنَّهم يعرفونَ أنَّ الكثيرَ من جوانبِ المجتمعِ الغربيِّ ترجعُ في أصولِها إلى مصادرَ إسلاميَّةٍ.

وممَّا يعدِّلُ ذلك خطورةُ أو أهميَّةُ وجودِ باحثِينَ يتجاهلونَ هذا الإنجازَ أو يستبعدونَهُ أو يُحجِمونَ عنِ الخوضِ فيه لأهدافٍ سياسيَّةٍ وثقافيَّةٍ بالدرجةِ الأولى، إلى حدِّ جعلِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ غيرَ معروفةٍ على نطاقٍ واسعٍ وتحويلِها إلى مجرَّدِ هامشٍ في المناهجِ المدرسيَّةِ والجامعيَّةِ الغربيَّةِ. فقد آنَ الأوانُ لإعادةِ اكتشافِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ والاحتفاءِ بها من قبلِ المسلمينَ وغيرِهِم على حدٍّ سواءٍ، خصوصاً في الغربِ. إننا جميعاً نتعاملُ يومياً مع الحواسيبِ الإلكترونيَّةِ ونتتبَّعُ رحلاتِ الفضاءِ ونتواصلُ مع العلومِ الفيزيائيَّةِ والرياضياتِ والطبِّ والهندسةِ والموسيقى والآدابِ والفنونِ والعمارةِ والروحانيَّاتِ. بيدَ أنَّ الكثيرينَ، بما فيهمُ المسلمونَ المعاصرونَ، يجهلونَ أنَّ هذه الحقولَ المعرفيَّةَ استندتْ منذُ أكثرَ من ألفِ عامٍ إلى إنجازاتِ العلماءِ والمفكِّرينَ والفنانينَ المسلمينَ.

ويتضمَّنُ الكتابُ استهلالاً كتبَهُ جلالةُ الملكِ عبدِ اللهِ الثَّاني ملكِ الأردنِّ، وأثنى فيه عليهِ قائلاً: يشكِّلُ هذا الكتابُ الَّذي يرمي إلى الخوضِ في قصَّةٍ تُروَى للمرَّةِ الأولى إضافةً مرحَّباً بها إلى الأدبِ الصادرِ حولَ تاريخِ الإسلامِ الثقافيِّ والفكريِّ وعلاقتِهِ بالغربِ أيضاً. وأبدى الرئيسُ الأسبقُ للولاياتِ المتحدةِ جيمي كارتر إعجابَهُ بهذا الكتابِ: "يقدِّمُ كتابُ تاريخٌ ضائعٌ حلقةً ضائعةً إلى قصَّةِ عالمٍ مرتبطٍ داخلياً ارتباطاً وثيقاً: أيْ إنجازاتُ الحضارةِ المسلمةِ وتأثيرُها في الشرقِ والغربِ". وقرأَ هذا الكتابَ مؤلفونَ آخرونَ معروفونَ بمناقشاتِهِمْ للقضايا السياسيَّةِ والفكريَّةِ، مثلُ: الكاتبِ الإنكليزيِّ الشهيرِ تيري إيغلتون الَّذي كتبَ في صحيفةِ "المكسيكيُّ الجديدُ" مقترِحاً إيَّاُه أنَّهُ: "أحدُ أفضلِ خمسةِ كتبٍ صدرتْ في السنواتِ العشرِ الأخيرة".

ويكتبُ أيضاً إدوارد ل. ويدمير، أحدُ مسؤولي مكتبةِ جون كارتر بروان أنَّ مايكل مورغان: "يقدِّمُ إلينا قصَّةً عن طريقِ إعادةِ بناءِ تاريخٍ كان ضائعاً لمدةٍ طويلةٍ يجبُ أنْ يَقرأَ "تاريخٌ ضائعٌ" كلُّ شخصٍ لديهِ شكوكٌ أنَّ للقصَّةِ بقيَّةً غيرَ العباراتِ النمطيَّةِ المستهلكَةِ مثلُ "صِدامِ الحضاراتِ". ويكتبُ ديفيد ليفيرنغ، الَّذي حازَ جائزةَ بوليتزر مرَّتينِ لكتابتِهِ التاريخَينِ الشخصيَّينِ لكلٍّ من دبليو. إي. بي. دوبوا وبرنارد لويس، أنَّ كتابَ: "تاريخٌ ضائعٌ نصٌّ يخالفُ أدبَ الانحلالِ الحتميّ للحضارةِ وصِدامِها العظيمِ، إنَّهُ كتابٌ يبحثُ على نحوٍ رصينٍ في التاريخِ الشعبيّ... وتفسيرُهُ فيهِ ضربٌ من المغامرةِ ويؤلِّفُ نظرةً واسعةً إلى الفكرِ والعلمِ الإسلاميَّينِ مكتوبةً بدقَّةٍ كبيرةٍ". ويكتبُ أخيراً محرّرُ "مجلةِ كيركوس ريفيوز" معلِّقاً على الكتابِ: "يَرثي مورغان الجهلَ المطبِقَ بالتأثيرِ المدهشِ للإسلامِ في العالمِ الغربيّ. ويقطعُ كتابُ تاريخٌ ضائعٌ شوطاً طويلاً بغيةَ تصحيحِ المبادئِ الخاطئةِ حولَ ذلك".

والخوضُ في تعريفِ موضوعِ الكتابِ وطبيعتِهِ وأهدافِهِ والتعليقِ عليهِ، لابدَّ فيهِ من إلقاءِ الضوءِ بصورةٍ موجزةٍ على مؤلِّفِهِ[1].

مايكل مورغان: ديبلوماسيٌّ سابقٌ حازَ شهاداتٍ ديبلوماسيَّةٍ عاليةً تثبتُ تميُّزَهُ في هذا الميدانِ. ومن ضمنِ مهمّاتِهِ الإشرافُ على وكالةِ الإعلامِ الأمريكيَّةِ وبرنامجِ فولبرايت للباحثينَ. وسافرَ ضمنَ وفودٍ إلى أوروبا الشرقيَّةِ والشرقِ الأوسطِ. واشتركَ في مشاريعَ عديدةٍ في أكثرَ من عشرينَ بلداً في أوروبا والشرقِ الأوسطِ وأفريقيا والأمريكيتينِ. وهو روائيٌّ يكتبُ النثرَ غيرَ الروائيِّ، وأحدثُ أعمالِهِ بعدَ "تاريخٌ ضائعٌ" كتابُ "شبهُ الجزيرةِ العربيَّةِ: في البحثِ عنِ العصورِ الذهبيَّةِ" الَّذي نُشِرَ في خريفِ 2010م في دارِ كتبِ إنسايت. ونُشِرَ عامَ 2002م كتابُ "صدامٌ مع التاريخِ: البحثُ عن ب. ت. 109 جون ف. كينيدي" وهو كتابٌ ومسلسلٌ بثَّتْهُ الجمعيَّةُ الجغرافيَّةُ في العامِ نفسِهِ. واشتركَ في تأليفِ كتابِ "مقابرُ الباسفيكي" الَّذي نشرتْهُ أيضاً الجمعيَّةُ الجغرافيَّةُ. وتعاونَ معهُ في نشرِ هذه الكتبِ والعملِ فيها المستكشفُ الشّهيرُ روبرت د. بالارد. وعُرِضَ الفيلمُ الَّذي كتبَهُ "حربُ الغَسقِ" عام 1991م. وحازَ الفيلمُ جائزةَ الكتابِ الوطنيَّةِ. وكتبَ أحاديثَ وأجرى مقابلاتٍ مع شبكاتٍ إخباريَّةٍ مثلِ الجزيرةِ وسي. بي. نيوز. وعُيِّنَ محكِّماً في لجانٍ دوليَّةٍ وجوائزَ أدبيةٍ. ودُعِيَ بكونهِ متحدِّثاً إلى البرلمانِ البريطانيّ والمنتدى

الاقتصاديّ العالميّ ومجلسِ الأعمالِ العربيّ ووزارةِ الماليَّةِ الأمريكيَّةِ والجمعيَّةِ الآسيويَّةِ وإدارةِ آرامكو السعوديَّةِ ومؤسَّسةِ محمدِ بنِ راشدٍ في دبي وجامعاتِ: جورج تاون وفيرجينيا والجامعةِ الأمريكيَّةِ في الشارقةِ، واشتغلَ باحثاً في جامعةِ فرجينيا التي تخرجَ فيها بدرجةِ امتيازٍ عام 1973م.

باختصارٍ، في عصرنا حينَ تظهرُ العلاقةُ بين الإسلامِ والغربِ مشوبةً بغيابِ الثقةِ وبسوءِ الفهمِ، من المهمِّ أنْ نتذكَّرَ أنَّ الحضارةَ الإسلاميَّةَ عبرَ عدَّةِ قرونٍ كانتْ محطَّ أنظارِ العالمِ كلِّهِ. ويملأُ كتابُ"تاريخٌ ضائعٌ" فراغاً مهمَّاً ويمكنُ أنْ يعدَّ قراءةً أساسيَّةً لأيِّ شخصٍ يسعَى لفهمِ الدَّورِ الَّذي اضطلعَ به المسلمونَ الأوائلُ في التأثيرِ في المجتمعِ المعاصرِ.

ويكشفُ مورغان أنَّ الإنجازاتِ الإسلاميَّةَ المبكِّرةَ في العلمِ والثقافةِ بمنزلةِ أحجارِ الأساسِ في النهضةِ الأوروبيَّةِ، وحركةِ التَّنويرِ، والمجتمعِ الغربيِّ الحديثِ. ويؤرِّخُ مورغان للعصورِ الإسلاميَّةِ الذهبيَّةِ، بدءاً من العامِ 570م عندَ مولدِ النبيِّ ﷺ، حتى عالمِنا الحديثِ الصاخبِ، فيقدِّمُ علماء مثل ابنِ الهيثمِ، وابنِ سينا، والطوسيِّ، والخوارزميِّ، وعمرِ الخيَّامِ وشخصياتٍ أخرى رائدةٍ، والَّذينَ أحدثُوا ثورةً في الرياضياتِ والفلكِ والطبِّ في عصورِهِمْ ومهَّدُوا الطريقَ لنيوتن وكوبريكوس ولكثيرينَ غيرِهِمْ. ويذكُرُ لنا أيضاً القادةَ الملهَمِينَ المتنوِّرين من زمنِ النبيِّ ﷺ إلى أيامِ سليمانَ القانونيِّ من الَّذينَ عملُوا لنشرِ التسامحِ الدِّينيِّ، وشجَّعُوا التقصِّيَ الفكريَّ، ورعَوُا الفنونَ والعمارةَ والكتبَ الأدبيَّةَ العظيمةَ الَّتي مازالتْ تسحرُنا حتى الآنَ بذكائِها وتألُّقِها. ويقدِّمُ الكتابُ هؤلاءِ القادةَ الروَّادَ بما أنجزُوهُ من أعمالٍ جليلةٍ وما يستحقُّونَهُ منِ احترامٍ جمٍّ.

إنَّ تفرُّدَ هذا الكتابِ يكمنُ في محاولةِ مؤلِّفِهِ الأمريكيِّ في أعقابِ أحداثِ 11/9 عام 2001م أنْ يصوغَ فيه بجرأةٍ دفاعاً عن عمليَّةِ فهمِ تاريخِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ وإسهاماتِها الكثيرةِ. بمعنى أنْ يضعَ المؤلِّفُ نفسَهُ في صفِّ ثقافةٍ مستهدَفةٍ على نحوٍ شاملٍ من الحربِ المصطَنعةِ المعلنةِ على الإرهابِ هو أمرٌ محفوفٌ بالمخاطرِ بالنسبةِ إلى أيِّ مؤلِّفٍ. بيدَ أنَّ مورغان يتجاوزُ هذا الأمرَ، ويَمضِي ضدَّ تيَّارِ المحافظينَ الجُددِ المدعومِ من إدارةِ بوش ويقومُ بنشرِ كتابِهِ. ويحاولُ مورغان في مقدِّمةِ الكتابِ إجابةَ سؤالٍ عنِ السببِ الَّذي دفعَهُ إلى القيامِ بهذا المشروعِ:

"إنَّ فقدانَ الذاكرةِ الواعيةِ لحضارةٍ كاملةٍ أمرٌ مأساويٌّ وخطِرٌ بشكلٍ خاصٍّ، لأنَّ كلَّ حضارةٍ، مهما تكنْ عظيمةً أو متصدِّعةً، مختبَرٌ للأفكارِ والمُثُلِ العليا البشريَّةِ، وللأحلامِ والكوابيسِ. ويمكنُنا أنْ نتعلَّمَ منها كلِّها... بكتابةِ تاريخٍ ضائعٍ، أتمنَّى أنْ أظهرَ لا بمجرَّدِ مساهماتِ حضارةٍ قديمةٍ وغنيَّةٍ. إنَّني آملُ أنْ أبيِّنَ، كما استنتجَ الخليفةُ المأمونُ، أنَّ العقلَ والإيمانَ يمكنُ أنْ يكونا الشيءَ نفسَهُ، وأنَّهُ بالانفتاحِ الكاملِ للعقلِ وإطلاقِ العنانِ للإبداعِ الإنسانيِّ، يصبحُ العديدُ من المعجزاتِ– بما في ذلكَ السلامُ– ممكِناً". (ص8–9 من المقدِّمةِ).

ومن الناحيةِ الفنيَّةِ، انقسمَ الكتابُ ثمانيةَ فصولٍ، يركِّزُ كلُّ فصلٍ منها على حقلٍ علميٍّ مخصوصٍ وحقبةٍ تاريخيَّةٍ محدَّدَينِ. وتبدأُ هذه الفصولُ بأسئلةٍ إنشائيَّةٍ ماتعةٍ ومحفِّزةٍ، مثلُ "ماذا لو أنَّ" الَّتي تدفعُ إلى تحدِّي القارئِ بوضعِهِ في مواجهةٍ عمليَّةٍ ربطِهِ الماضيَ بالحاضرِ.

ويشرحُ مورغان أنَّهُ بتأليفِهِ هذا الكتابَ: "أدخلَ حقلَ ألغامٍ محتمَلاً. ويتَّخذُ حقلُ الألغامِ حدَّةً أكبرَ الآنَ بالتَّقاربِ الحاليِّ بينَ الإرهابِ الإسلاميِّ المتطرِّفِ، وظهورِ نماذجِ الحرفيَّةِ الأصوليَّةِ الدينيَّةِ لتنظيمِ المجتمعاتِ والحياةِ الفرديَّةِ، وتواصُلِ المعاركِ بينَ إسرائيلَ وجيرانِها... وغزوِ الولاياتِ المتحدةِ لأفغانستانَ والعراقِ و"حربِها ضدَّ الإرهاب"، والأزماتِ السياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ في مجتمعاتٍ إسلاميَّةٍ منتقاةٍ".

ويتابعُ مورغان: "غالبيَّةُ الأمريكيِّينَ، ومنهمُ المسلمونَ الأمريكيُّونَ، حتى العديدُ من المسلمينَ في أجزاءٍ أخرى من العالمِ، يعرفونَ مجرَّدَ الأشكالِ العامَّةِ الأكثرِ إبهاماً من تاريخِ الإسلامِ، أيْ أنَّهم كانوا عظماءَ فيما مضى، واخترعُوا الحسابَ، لكنَّهم تخلَّفُوا بعدَ ذلكَ. وتعلَّمَ غالبيَّةُ الغربيِّينَ أنَّ عظمةَ الغربِ لها جذورُها الثقافيَّةُ في اليونانِ وروما، وأنَّهُ بعدَ السُّباتِ الَّذي دامَ ألفَ سنةٍ في العصورِ المظلمةِ، تنبَّهتْ أوروبا من جديدٍ بصورةٍ خارقةٍ إلى جذورِها اليونانيَّةِ– الرومانيَّةِ. وبحسبِ الروايةِ التقليديَّةِ، كانتْ إعادةُ اكتشافِ اليونانِ الكلاسيكيَّةُ هذه– مرتبطةً بالدَّعمِ الأخلاقيِّ للإيمانِ اليهوديِّ –المسيحيِّ– أدَّتْ إلى عصرِ النهضةِ والتَّنويرِ، والثوراتِ العلميَّةِ والصناعيَّةِ. وتقتصرُ المساهماتُ الفكريَّةُ للعربِ والفرسِ والهنودِ والصينيِّينَ والأفارقةِ، وغيرِهِمْ في العالمِ الإسلاميِّ على مجرَّدِ هوامشَ".

ويختتِمُ مورغان قولَهُ: "باستعادةِ تاريخِنا المشتركِ الضائعِ، أتمنَّى أنْ يستطيعَ غيرُ المسلمينَ أنْ ينالُوا من أبناءِ عمومتِهمُ المسلمينَ احتراماً أكبرَ وفهماً أعمقَ ممَّا توحي به العناوينُ البارزةُ والسياساتُ الحاليَّةُ، وأنْ يستطيعَ المسلمونَ اليومَ أنْ يرَوا كيفَ جرى تطبيقُ الإسلامِ سابقاً بطريقةٍ تدعمُ الإبداعَ والاختراعَ والتسامحَ وتنوُّعَ الفكرِ والسلوكِ في كلٍّ من المجتمعِ والحياةِ الفرديَّةِ. لذلك، باستعادةِ التاريخِ الضائعِ، ربَّما يمكنُنا أنْ نبدأَ في فهمِ قضايا اليومِ التي لن تُحَلَّ بالقوةِ أبداً. لأنَّهُ إذا لم يكنْ ثمَّةَ درسٌ آخرُ يمكنُ تعلُّمُهُ من "تاريخٌ ضائعٌ"، فالقوَّةُ نادراً ما تحُلُّ بشكلٍ إيجابيٍّ قضايا الروحِ والنفسِ– سواءٌ عندَ الأفرادِ أو في الحضاراتِ". (ص 10 من المقدمة).

ويبرزُ اعتقادٌ بينَ الفينةِ والأخرى، في أثناءِ مراجعةِ تاريخِ الفكرِ العالميّ، مفادُهُ أنَّ نهضةَ العلمِ في أوروبا لا تَدينُ إلا بنزرٍ يسيرٍ من عمليَّةِ نقلِ المسلمينَ للفلسفةِ والعلومِ اليونانيَّةِ. وينطلقُ هذا الاعتقادُ في الأغلبِ الأعمِّ من فكرةٍ مفادُها لما سعى الإسلامُ جاهداً إلى ترسيخِ سلطةِ الوحيِ، حالَ ذلكَ دونَ تمكُّنِ العلماءِ المسلمينَ من فهمِ العقلانيَّةِ الأصيلةِ الَّتي أخرجتِ الفكرَ الإغريقيَّ إلى الوجودِ. وفي أثناءِ تفسيرِ دورِ الإسلامِ في الحضارةِ يُعزَى حفظُ علومِ الأقدمينَ وترجمتُها إلى الآراميَّةِ والسريانيَّةِ عن طريق رجالِ الدينِ المسيحيِّ الَّذينَ عاشُوا وعملُوا في العهودِ المتتابعةِ لحكمِ الخلافةِ الإسلاميَّةِ. ويتحقَّقُ ذلك بتوثيقِ الترجماتِ السريانيَّةِ التي صَبَّتْ في بضعِ مراكزَ في أوروبا العصورِ الوسطى. وبذلك يتأسَّسُ عصرُ النهضةِ بصورةٍ رئيسةٍ على عملِ الرُّهبانِ الكاثوليكِ الرائعِ والَّذينَ يعودُ إليهمُ الفضلُ في استعادةِ التُّراثِ الضَّائعِ للعصورِ الكلاسيكيَّةِ إلى أوروبا قبلَ أنْ يتمكَّنَ أولئكَ العلماءُ المسلمونَالَّذين يَعزُو إليهمُ المؤرِّخونَ المعاصرونَ قصبَ السَّبقِ، من إحرازِ فهمٍ حقيقيٍّ لأرسطو وأفلاطون وبطليموس وإقليدس وجالينوس وغيرِهمْ.

ومن الجورِ القولُ: إنَّ مثلَ هذا الرأيِ يعتمدُ على نطاقٍ واسعٍ في أوروبا، بل إنَّهُ قد يتعرَّضُ إلى انتقادٍ شديدٍ نظراً لوجودِ تدقيقٍ بحثيٍّ عريقٍ في وقائعِ التاريخِ، ولعلَّهُ يلقَى استقبالاً أفضلَ في الولاياتِ المتحدةِ، نظراً إلى وجودِ نوعٍ من البراءةِ فيما يتعلَّقُ بالتعايشِ المثمرِ الَّذي نشأَ بينَ العالَمَينِ الإسلاميِّ والمسيحيِّ في الألفيَّةِ التاليةِ لانهيارِ الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ. ويذكِّرُنا مايكل مورغان في كتابِهِ "تاريخٌ ضائعٌ"، وهو بانوراما مختارةٌ ومدروسةٌ بعنايةٍ تحاولُ شرحَ جوانبَ مهمَّةٍ

من الفكرِ والتاريخِ الإسلاميَّينِ، بذلك حينَ يكتبُ: "تعلَّمَ غالبيَّةُ الغربيّينَ أنَّ عظمةَ الرَّبِّ لها جذورُها الثقافيَّةُ في اليونانِ وروما، وأنَّهُ بعدَ السُّباتِ الَّذي دامَ ألفَ سنةٍ في العصورِ المظلمةِ، تنبَّهتْ أوروبا من جديدٍ بشكلٍ خارقٍ إلى جذورِها اليونانيَّةِ- الرومانيَّةِ". (ص11 من المقدّمةِ). وكلَّما تركَّبتِ المشكلةُ العامَّةُ اللاأدريَّةُ حولَ التفاعلِ التاريخيّ بينَ الإسلامِ والغربِ وبسيطرةِ الباحثِينَ من المحافظينَ الجُددِ والسّياساتِ المختلفةِ المخطَّطِ لها، تأكَّدَ بصورةٍ أوضحَ عدمُ التَّوافقِ بين ثقافةِ الغربِ وثقافةِ العالمِ الإسلاميّ. وضمنَ سياقِ هذا الفهمِ لِمَا يسمَّى "مشكلةَ" الإسلامِ، بحسبِ التَّساؤلِ الشَّهيرِ لبرنارد لويس "أينَ يكمنُ الخطأ"، فإنَّ انكفاءَ المسلمينَ إلى الأصوليَّةِ الدينيَّةِ المتطرّفةِ والإرهابِ السياسيّ يبدو كأنَّهُ أمرٌ حتميٌّ، هذا مع الاعترافِ بإسهاماتٍ مهمَّةٍ ومختلفةٍ للمسلمينَ في الغربِ ما بعدَ الرومانيّ. فإنجازاتُ الإسلامِ العظيمةُ في الماضي تخدمُ في كونِها ذخيرةَ حقائقَ أمامَ اتِّهامِها كحضارةٍ قُدِّرَ عليها أنْ تدفعَ ثمنَ ثقةِ العالمِ ما بعدَ الصناعيّ بها.

ويخالفُ هذا الكتابُ فكرةَ الصراعِ الكبيرِ بينَ الحضاراتِ، وهو عملٌ بحثيٌّ مُحْكَمٌ في التَّاريخِ العامّ، يصرحُ المؤلّفُ فيه منذُ البدايةِ بعزمِهِ على: "تأكيدِ الجانبِ اللّامعِ لحضارةٍ معقَّدةٍ جدَّاً [الإسلاميَّةُ]". (ص12 من المقدّمةِ). وينطلقُ مورغان في تأكيدِهِ من البداياتِ الملكيَّةِ للدّينِ التوحيديّ الإبراهيميّ العالميّ الثالثِ، وينتقلُ إلى التقدُّمِ الحاصلِ الَّذي لا يمكنُ إيقافُهُ بالهلالِ الخصيبِ. بخطًى تُحاكِي الجهادَ الَّذي أطلقَهُ الخليفةُ العادلُ الثاني عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سنةَ 636م. وتتهاوى الإمبراطوريَّةُ السَّاسانيَّةُ العالميَّةُ عندَ اصطدامِها بهذا التقدُّمِ، أمَّا الإمبراطوريَّةُ الرومانيَّةُ- الإغريقيَّةُ فتندحرُ في بلادِ الشَّامِ لتنجوَ بنفسِها ولتعيشَ محاصرةً في عاصمتِها ثمانيةَ قرونٍ تاليةٍ. ويتمُّ الجهادُ، كما يوضّحُ المؤلّفُ، بموجبِ نهيِ النبيّ ﷺ المستوحَى من القرآنِ الكريمِ عن فرضِ الإيمانِ قسراً. أمَّا الجزيةُ الَّتي يدفعُها غيرُ المسلمينَ من الرعيَّةِ فقد حثَّتْ بقوَّةٍ على إنجازٍ سياسيٍّ دينيٍّ يتمثَّلُ في حريَّةِ العملِ. ونظرَ الكثيرونَ إلى حكمِ الفاتحينَ المسلمينَ وفضَّلُوهُ على الاضطِهادِ الدينيّ واستغلالِ الجهدِ الإنسانيّ وعلى ما عانَوهُ منهُما سابقاً وممَّا يوضّحُ ذلكَ عدمُ مقاومتِهِمْ للحكمِ الجديدِ ثمَّ التحوُّلِ إلى الإسلامِ. هذا بالمقارنةِ مع الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ

الَّتي كانتْ تحكمُ شعوباً غيرَ متجانسةٍ وتفرضُ عليهمُ احتراماً لقوانينِها وتحصيلاً للضَّرائبِ، وتنغمسُ من جانبٍ آخرَ في تنوعٍ ثقافيٍّ وتتقبَّلُ درجاتٍ عليا من الحكمِ الذاتيّ المحليّ.

وبعدَ 79سنةً من وفاة النبيّ ﷺ، تقفزُ الإمبراطوريَّةُ الإسلاميَّةُ في عامِ 671م من شمالِ أفريقيا عبرَ المتوسطِ في غزوٍ سريعٍ لشبهِ الجزيرةِ الإيبريَّةِ بعد هزيمةِ القوطيّينَ الغربيّينَ القُساةِ. وتصبحُ شبهُ الجزيرةِ الإيبريَّةِ الألمانيَّةِ –اللاتينيَّةِ بلمحِ البصرِ "بلادَ الأندلسِ"، بعدَ أنْ يصلَ الجهادُ الإسلاميُّ إلى جبالِ البيرينه المنيعةِ ويتجاوزُها.

وفي العامِ 732م يواجهُ الجيشُ الإسلاميُّ الجرَّارُ قواتٍ صغيرةً من الفرنجةِ على الطريقِ الرومانيَّةِ القديمةِ إلى بواتييه. ولسببٍ ما، يلاحظُ مورغان ما كتبتْهُ أجيالٌ من المؤرّخينَ الأوروبيّينَ حولَ هذه الحادثةِ ويكتبُ: "فإنَّ هذا الصراعَ الخاصَّ سيكونُ ملوَّناً بمفهومٍ تنبُّؤيٍّ". ومع أنَّهُ يعتقدُ ربما بصورةٍ مخطئةٍ أنَّ الموقعَ الفعليَّ للمكانِ (قريةُ موسيه– لاباتاي– الصغيرةُ) "لا يمكنُ تحديدُهُ فعليّاً على الخريطةِ"، فإنَّ المؤلِّفَ يعيدُ تركيبَ مشهدِ معركةِ بواتييه بتفاصيلَ سينمائيَّةٍ معقولةٍ للغايةِ. (ص13). وبالنسبةِ إلى ما قد يَعنيهِ كلُّ هذا، أنْ ينقذَ أوروبا العصورِ المظلمةِ زعيمٌ قبليٌّ ألمانيٌّ ذو إرادةٍ، ويجريَ اعتراضُ المدِّ الإسلاميّ لبلادِ الغالِ مؤقَّتاً، ويصبحَ مسعى المسلمينَ إلى الغنائمِ أمراً غيرَ واردٍ، يزعمُ المؤلِّفُ أنَّهُ فيما يتعلَّقُ بهذه الأمورِ "هذا النقاشُ لن يتمَّ حلُّهُ أبداً". (ص13).

ومن الجليّ، على أيَّةِ حالٍ، سواءٌ أكانَ الخليفةُ الأمويُّ يفكّرُ في ضمِّ أراضي ما وراءَ البيرينه إلى دارِ الإسلامِ أم لا، والأمرُ بطبيعةِ الحالِ غيرُ محسومٍ بالنسبةِ إلى مورغان، استفادتْ أوروبا على نحوٍ أكبرَ بكثيرٍ من المسلمينَ منِ انتصارِ شارل مارتل "المطرقةُ". ولعلَّ الكلمةَ المستحدَثةَ آنذاك "الأوروبيُّونَ" استُعملِتْ أولَ مرَّةٍ من قبلِ كاتبٍ أندلسيٍّ للإشارةِ إلى المنتصرينَ في معركةِ بواتييه والَّذينَ راحُوا يمتلكونَ عقليَّةً متطوّرةً باتِّجاهِ صِدامِهمُ المستمرِّ مع المسلمينَ والَّتي ستصبحُ عقيدةً جامدةً بالنسبةِ للغربيّينَ منذُ القرنِ الحادي عشرَ. بكلماتٍ أخرى،أسهمَ المسلمونَ بصورةٍ أو بأخرى في نشوءِ فكرةِ "أوروبا"، وعليهِ يؤسّسُ شارل مارتل وأحفادُهُ من بعدِهِ النظامَ الكارولنجي على أسطورةِ بواتييه، ومن ثَمَّ يؤدّي التحالفُ مع البابويَّةِ الكاثوليكيَّةِ إلى صياغةِ مستقبلِ النَّزعةِ المسيحيَّةِ المسلَّحةِ. والتي لم تقبلْ بأيِّ نوعٍ من التسامحِ مع الأديانِ الأخرى.

وركبتْ موجةَ هذه النزعةِ طبقةٌ من الفرسانِ حكمتْ بالقتلِ والتَّرويعِ، مع أنَّ فروسيَّتَها لم تكنْ مشتقَّةً من الطريقةِ الدخيلةِ للفرسانِ العربِ، مع العلمِ أنَّ مورغان يظنُّ على نحوٍ خاطئٍ أنَّ رجالَ "المطرقةِ" المنتصرينَ أخذُوها من الفرسانِ الأندلسيّينَ الَّذينَ سقطُوا في تلكَ المعركةِ الكبيرةِ. فهذه المناوشةَ الرئيسةَ الَّتي تخلُو من أيَّةِ دوافعَ دينيَّةٍ بينَ المحاربينَ العربِ والألمانِ على أطرافِ جبالِ البيرينه أصبحتْ تاريخياً بمثابةِ إشارةٍ لولادةِ حضارةٍ جديدةٍ. وبالنسبةِ إلى الأوروبيّينَ كان وصولُ العربِ المسلمينَ حتى وسطِ فرنسا "مؤلماً بشكلٍ كبير ولكلِّ مَنْ في طريقهِ تاركاً جرحاً لم يُشفَ كلياً مع أنَّ تفاصيلَهُ نُسِيتْ". (ص14).

لكنْ إذا كانتْ جبالُ البيرينه قد خلَّفتْ ندبةً حمراءَ في القارّةِ الأوروبيَّةِ، فإنَّ ثمَّةَ حضارةً إسلاميَّةً عاليةَ الثقافةِ ومزدهرةً بصورةٍ عظيمةٍ نشأتْ غربَ هذه السِّلسلةِ الجبليَّةِ. وإنْ مرَّ ما يزيدُ على عقدٍ من الزمنِ تميَّزَ بعنفٍ دمويٍّ أدَّى إلى إنهاءِ السُّلالةِ الأمويَّةِ القديمةِ التي حكمتْ مئةَ عامٍ، فإنَّ الحكمَ الأمويَّ تمكَّنَ من العودةِ إلى شبهِ الجزيرةِ الإيبريَّةِ بأشخاصٍ مرموقينَ من أمثالِ عبدِ الرَّحمنِ الأوَّلِ وعبدِ الرَّحمنِ الأوسطِ وعبدِ الرَّحمنِ الناصرِ، الَّذينَ أنتجَتْ سياساتُهُمْ تواؤماً اجتماعيَّاً أو عيشاً مشتركاً منقطعَ النظيرِ يمكنُ أنْ يخدمَ كنموذجٍ بديلٍ لأوروبا في تسامحِها الدينيّ وعقلانيَّتِها الفلسفيَّةِ.

وينهمكُ المؤلِّفُ في إعادةِ سردِ تاريخِ قرطبةَ "زينةِ الدُّنيا" بشوارعِها المضاءةِ، وحمَّاماتِها العامَّةِ، ومكتباتِها الكبيرةِ، المجتمعُ الأهمُّ والوحيدُ الَّذي يضمُّ مجموعاتٍ بشريَّةً متنوّعةً ومتفرّقةً، والمسيحيُّونَ الإيبريُّونَ الَّذينَ سيُطلَقُ عليهمُ العربُ المستعربةُ ويقدّمُ المؤلِّفُ صورةً مختصَرةً غيرَ متوقَّعةٍ عندما يشرحُ العملَ الجوّيَّ الفذَّ الَّذي قامَ به عباسُ بنُ فرناسٍ والَّذي طارَ بجناحينِ فوقَ قرطبةَ من جبلِ مورينا– والَّذي سيحسدُهُ ليوناردو دافنشي من دونِ شكٍّ. وتحتضنُ قرطبةُ فلسفةَ ابنِ رشدٍ العاليةَ وأعمالَ موسى بنِ ميمونٍ وعبقريَّةَ الزهراويّ الطبيَّةَ. ويستلمُ عبدُ الرَّحمنِ الثالثُ– الملقَّبُ بالناصرِ– نفسُهُ كتابَ ديوسقوريدس[2] "المادَّةُ الطبيَّةُ" والمعروفُ باسمِ "الحشائشِ" من إمبراطورِ القسطنطينيَّةِ ويأمرُ بإعادةِ ترجمتهِ في الأندلسِ[3]. وتتمُّ ترجمةُ كتابِ ديوسقوريدس من قبلِ بيزنطيٍّ إغريقيٍّ، وعالمٍ مسلمٍ، وقسٍّ كاثوليكيٍّ، بتوجيهٍ من وزيرِ عبدِ الرَّحمنِ الناصرِ، حسداي بنِ شبروط، وهو يهوديٌّ قرطبيٌّ، وكانَ ذلك مشروعاً غيرَ قابلٍ

للتَّصديقِ آنذاكَ في أوروبا المسيحيَّةِ. وممَّا يجدرُ ذكرُهُ أنَّ قاضيَ قرطبةَ كانَ يحكمُ في قضايا المسيحيّينَ واليهودِ إذا شاؤُوا، وفي هذه الحالةِ كانَ يجلسُ لهم على بابِ المسجدِ، وكانتِ العادةُ أنْ يعقدَ هذه الجلسةَ صباحَ كلِّ خميسٍ[4].

وتأتي أهميَّةُ فكرةِ التاريخِ الضائعِ من أنَّهُ ينقضُ الادِّعاءَ القائلَ بسبقِ السريانِ وأساسيَّةِ عملِهِمْ ووصولِ الفكرِ اليونانيِّ عبرَهمْ من دونِ المرورِ باللغةِ العربيَّةِ، ويؤكِّدُ الحقيقةَ المعروفةَ أنَّ الثقافةَ اليونانيَّةَ وصلتْ إلى الغربِ بالعربِ والمسلمينَ الَّذين نقلُوا الحضارةَ اليونانيَّةَ إلى العربيَّةِ، ثم جاءَ الغربيُّونَ ونقلُوا هذه الحضارةَ من العربيَّةِ إلى اللاتينيَّةِ وإلى لغاتٍ أوروبيَّةٍ حديثةٍ[5].

ويرفضُ بصورةٍ غيرِ مباشرةٍ فكرةَ تبعيَّةِ العلماءِ والمفكِّرينَ المسلمينَ وتقليدَهمُ الآخرينَ فحسبُ من خلالِ الحديثِ عن بغدادَ العباسيَّةِ. فبنهوضِها على ضفافِ دجلةَ تحتَ قيادةِ الخليفةِ العباسيِّ الثاني أبي جعفرٍ المنصورِ (712م– 775م)، تتفوقُ بغدادُ على القسطنطينيَّةِ من حيثُ المستوى العلميِّ والثروةِ. وقرطبةُ الأمويَّةُ لم تكنْ بالمقارنةِ مع بغدادَ إلا صورةً عنها. وبعدَ انهيارِ جنديسابور في بلادِ فارسَ، المدينةِ النموذجِ للنشاطِ العلميِّ والطبيِّ، يقالُ: إنَّ هارونَ الرشيدَ قامَ بتدشينِ "بيتِ الحكمةِ" في بغدادَ، المركزِ الإسلاميِّ العالميِّ العظيمِ الَّذي قامَ برعايةٍ من الخلفاءِ بتحقيقِ اختراقاتٍ كبيرةٍ في الفلكِ والرياضياتِ والطبِّ. يؤكِّدُ المؤلِّفُ رعايةَ الخلفاءِ للعلمِ ويذكُرُ أمثلةً واضحةً على ذلكَ، إذ إنَّهُ من غيرِ الصحيحِ أنَّ الملوكَ جميعاً كانتْ دائماً ترعَى العلمَ والعلماءَ. وعلى أيَّةِ حالٍ، لا نعثرُ في الكتابِ على الكثيرِ من الأسبابِ ودوافعِ الحياةِ التي دفعتِ الخلفاءَ الأمويّينَ والعباسيّينَ إلى الاستثمارِ في العلمِ –ولعلَّ الدافعَ أوِ السببَ الأبرزَ الَّذي يظهرُ على السطحِ ولعُهمْ وواجبُهمُ الذي يؤدُّونَهُ تجاهَ العلمِ. لذلك يتميَّزُ الكتابُ بنزعتِهِ الأخَّاذةِ في وصفِ سيرةِ الإنجازاتِ التي تمَّتْ رعايتُها. فحينَ يستدعي الخليفةُ العالمُ المأمونُ (813م– 833م) مُحَمَّداً الخوارزميَّ من خراسانَ، الأبَ المؤسِّسَ للنظامِ العَشْريِّ والمكتشفَ للصفرِ الهنديِّ والدقيقةِ –الستينَ ثانيةً البابليَّةِ، والَّذي ينذُرُ حياتَهُ في "بيتِ الحكمةِ" لإنجازِ كتابِهِ الكبيرِ في علمِ الجبرِ "الجبرُ والمقابلةُ"، فيغدُو الخوارزميُّ من أكبرِ علماءِ المسلمينَ ومن العلماءِ العالميّينَ الَّذينَ تركُوا مآثرَ جليلةً في العلومِ الرياضيَّةِ والفلكيَّةِ[6]. وبعدَ أنْ يشرعَ "بيتُ الحكمةِ" أبوابَهُ يقومُ أحدُ الفلكيّينَ المشَّائينَ الأرسطيّينَ اسمُهُ الفرغانيُّ بإعدادِ ترجمةٍ تعدُّ

أوَّلَ ملخَّصٍ بالعربيَّةِ لكتابِ بطليموسَ "المجسطي". ويفدُ إلى "بيتِ الحكمةِ" أيضاً أحدُ العباقرةِ الجوَّالينَ، جابرُ بنُ حيَّانَ، اليمنيُّ الأصلِ، فيحقِّقُ الكثيرَ من الإبداعاتِ والتآليفِ الكيميائيَّةِ. ويقولُ برتيلو، أحدُ مؤرِّخي العلمِ، إنَّ :لجابرِ ابنِ حيَّانَ في الكيمياءِ ولأرسطو في المنطقِ إنجازات عظيمة"[7].

وامتلكتْ بغدادُ الكثيرَ من الابتكاراتِ العلميَّةِ، ولكنَّ الأمرَ لم يعُدْ كذلكَ حينَ أصبحَ الخلفاءُ رهنَ مساعديهمْ من البويهيّينَ والمماليكِ، وأصبحُوا أشخاصاً لا تأثيرَ لهُمْ بعدَ الغزوِ السلجوقيِّ التركيِّ في القرنِ الحادي عشرَ. فمن "بيتِ العلمِ" في الخلافةِ الفاطميَّةِ الناهضةِ في مصرَ يظهرُ ابنُ الهيثمِ ورفضُهُ نظريَّةَ بطليموسَ أنَّ أشعةَ الضَّوءِ تصدرُ من العينِ، وعرفتْهُ أوروبا المسيحيَّةُ باسمِ الحسنِ مؤلِّفِ "كتابِ المناظرِ" الَّذي يعدُّ قمَّةً من قممِ العلمِ. ومن أصفهانَ الراقيةِ، يظهرُ مركزٌ للقوَّةِ والعلمِ في القرنِ الحادي عشرَ أيضاً، وفيه يبرهنُ عمرُ الخيَّامِ أنَّ حسابَ محورِ دورانِ الأرضِ وحسابَ السَّنةِ تقريباً هما بالدقَّةِ نفسِها التي أثبتَها تلسكوبُ هابلَ بعدَ 1100 سنةٍ ويتعرَّفُ عالمٌ آخرُ من أصفهانَ على مرضِ السلِّ بكونِهِ فيروساً ويقومُ بجمعِ المعرفةِ الطبيَّةِ المتوفِّرةِ في كتابِهِ الشهيرِ "القانونُ في الطبِّ" والَّذي سيُستعمَلُ في المدارسِ الطبيَّةِ قروناً[8].

وحين يأخذُ السلطانُ محمودُ الغزنويُّ المحاربُ، العالمَ أبا الرَّيحانِ البيرونيَّ أسيراً إلى غزنةَ، يتوصَّلُ الأخيرُ إلى النظريَّةِ الهنديَّةِ حول المدِّ والجزرِ القمريَّينِ. ويعيدُ كتابُ "تاريخٌ ضائعٌ" سردَ قصَّةِ جهودِ البيرونيِّ في توضيحِ قضايا فلكيَّةٍ، وإصلاحِ أخطاءٍ مسابقةٍ في الأزياجِ، وجدولِهِ فيما يتعلَّقُ بخسوفِ القمرِ[9]. وفي جنوبِ شرقِ الأناضولِ، تظهرُ عبقريَّةٌ أخرى في خدمةِ السُّلطانِ السُّلجوقيِّ المقاتلِ، تقومُ بتصميمِ آلاتٍ وأدواتٍ (محورُ ذراعِ التَّدويرِ، المضخَّةُ المائيَّةُ العملاقةُ) جديدةٍ كلياً، ويذكُرُ مورغان أنَّهُ وإنْ عُرِفَ بعضُها الآنَ، فإنَّ كتابَ الجزريِّ "كتابُ معرفةِ الأدواتِ الآليَّةِ المبدَعةِ" والَّذي لم يترجَمْ إلى اللغةِ الإنكليزيَّةِ إلا في القرنِ العشرينَ ولولا التاريخُ الضائعُ، لَكانَ الجزريُّ "سيشتهرُ في العالمِ مثلَ ليوناردو دافنشي". (ص18).

وثمَّةَ رأيٌ غدا معروفاً بينَ الباحثينَ الغربيّينَ وهو أنَّ أحدَ الأسبابِ الأساسيَّةِ للانقطاعِ الحاصلِ بينَ الديموقراطياتِ الغربيَّةِ والعالمِ الإسلاميِّ يكمنُ في فشلِ الأخيرِ في أنْ ينجِزَ ثورةً دينيَّةً مماثلةً لحركةِ الإصلاحِ الدينيِّ الأوروبيِّ في القرنينِ السابعَ عشرَ والثامنَ عشرَ. وعلى أيَّةِ

حالٍ، يذكُرُ مايكل مورغان في الفصلِ الثاني أنَّ الأمَّةَ الإسلاميَّةَ شهدتْ حركةً فلسفيَّةً ودينيَّةً مماثلةً قبلَ أوروبا بستَّةِ قرونٍ. فسعَتِ المدارسُ المتنافسةُ فيما بينَها سواءٌ أكانتْ تقليديَّةً أم مستحدَثةً فلسفياً ودينياً وحقوقياً: الأحنافُ، والحنابلةُ، والمتكلِّمونَ، والفقهاءُ، والمعتزلةُ وغيرُهمْ إلى إبرازِ وجهةِ نظرِها في مجالسِ بغدادَ العباسيَّةِ. وحاولَ رجالُ علمٍ من أمثالِ الكِنْديّ والفارابيّ إيرادَ اقتباساتٍ مترجَمةٍ من كتاباتِ أرسطو وأفلاطونَ لتدعيمِ آرائِهم ولِيُناقشُوا أنَّهُ لا تناقضَ بينَ الوحيِ والعقلِ، وأكَّدَ أولئكَ الَّذينَ ينتمونَ إلى المعتزلةِ مثلُ ابنِ سينا أنَّ المنطقَ الأرسطيَّ هو الطريقُ الواجبُ سلوكُهُ للوصولِ إلى الحقيقةِ الدينيَّةِ. وقبلَ أنْ تتمَّ المواجهةُ بينَ الموجةِ العقلانيَّة ضدَّ التوجُّهِ التقليديّ في بدايةِ القرنِ الحادي عشرَ، حاولَ بعضُ المعتزلةِ تفسيرَ القرآنِ الكريمِ مجازيَّاً. ولكنْ لما كانتْ أعمالُ الفلكيّينَ والرياضيّينَ والكيميائيّينَ والأطباءِ تتقدَّمُ بخطًا كبيرةٍ، كان التفكيرُ العقلانيُّ المستقلُّ "الاجتهادُ" يسيرُ ببطءٍ إلى أنْ أُغلِقتْ أبوابُهُ رسمياً أيامَ الخليفةِ القادرِ باللهِ (991–1013م). واستمرَّ الاجتهادُ نوعاً ما لمدةٍ أطولَ في الأندلسِ حتى إنَّ بعضَ خلفاءِ الموحِّدينَ كانوا متسامحينَ بهذا الشَّأنِ.

وفي هذا الكتابِ الَّذي يحتفِي صراحةً بالفكرِ الإسلاميّ، يركِّزُ مؤلِّفُهُ على كتاباتِ ثلاثةٍ من رجالِ الفكرِ العظماءِ خلالَ ثماني سنواتٍ في الأندلسِ: البتروجيّ وابنِ رشدٍ وابنِ ميمونٍ ويكتبُ أنَّ: "وفياتِهِمْ تؤشِّرُ نهايةَ مرحلةٍ وبدايةَ حالةِ اضطرابٍ أكبرَ في الأزمنةِ التاليةِ".(ص19).

أمَّا العاصفةُ المغوليَّةُ التي اندفعتْ عبر بلادِ الهلالِ الخصيبِ عام 1258م، فقد قتلتِ الخليفةَ العباسيَّ الأخيرَ، ودمَّرتْ بغدادَ وأفنَتْ سكَّانَها، ومسحتِ الإمبراطوريَّةَ القائمةَ عن وجهِ الأرضِ. وبعدَ سنتينِ من قيادةِ هولاكو، حفيدِ جنكيز خان، لجحافلِ المغولِ، يقومُ حكَّامُ مصرَ من المماليكِ بكبحِ جماحِهِ في معركةِ عينِ جالوتَ في فلسطينَ معَ الفارقِ الكبيرِ في العُدَّةِ والعددِ. وشكَّلتْ معركةُ عينِ جالوتَ، منعطفاً تاريخيَّاً حاسماً. فبعدَ أنْ تمزَّقَ المغولُ وما نجمَ عن ذلكَ من حكمِ السلطناتِ المغوليَّةِ –التركيَّةِ القصيرةِ الأمدِ، انقسمتْ دارُ الإسلامِ في النهايةِ إلى حضاراتٍ رئيسةٍ ثلاثٍ: فارسُ الصفويَّة والهندُ المغوليَّةُ وآسيا الصُّغرَى وشمالُ أفريقيا العثمانيَّةُ.

وكانتْ هذا الإمبراطورياتُ الإسلاميَّةُ جميعاً أكبرَ وأغنى وأقوى وأكثرَ تفوُّقاً عمرانيَّاً وحضاريَّاً من الدولِ القوميَّةِ الدينيَّةِ المتفرّقةِ في أوروبا.

ويتابعُ هذا الكتابُ القصَّةَ الطويلةَ الغنيَّةَ بالإنجازاتِ العلميَّةِ والفكريَّةِ والفنيَّةِ في عواصمَ كبرى مثلِ: أصفهانَ وسمرقندَ ودلهي ومراغةَ وإسطنبولَ. فمِنْ مرصدِهِ في أذربيجانَ المغوليَّةِ، يقومُ أحدُ الناجينَ من مذابحِ بغدادَ بمسحِ السماءِ وبحسابِ تقدُّمِ الاعتدالَينِ –تذبذبُ محورِ دورانِ الأرضِ– بدقَّةٍ كبيرةٍ. وسيوجِدُ الطوسيُّ دليلاً شاملاً للنجومِ يبيّنُ فيه حركتَها ويقدّمُهُ إلى راعيهِ إيلخان هولاكو، ويضعُ تصوُّراً متقدّماً لنظامِ بطليموسَ عنِ الكواكبِ، شارحاً إنجازَهُ الفلكيَّ الرياضيَّ ويسمّيهِ "الرابطَ الطوسيَّ"، وسيكرّرُ كوبرنيكوس نظرتَهُ بعدَ 250 سنةً وسيَجري نقاشٌ عن مدى استفادتِهِ من الطوسيّ. وفي أزمنةٍ لاحقةٍ، سيقومُ البحَّارةُ البرتغاليُّونَ بالإبحارِ حولِ الشواطئِ الإفريقيَّةِ في مراكبَ شراعيَّةٍ صغيرةٍ سريعةٍ مبنيَّةٍ على طرازِ السفنِ الإسلاميَّةِ ذاتِ الأشرعةِ المثلَّثةِ الشَّكلِ. وستحاصِرُ الجيوشُ العثمانيَّةُ المسلَّحةُ بالقذائفِ الصينيَّةِ بعد أقلَّ من قرنٍ على استيلائِهِمْ على القسطنطينيَّةِ. وحينَ يُطلَقُ على القرنِ السَّادسَ عشرَ اسمُ "قرنِ سليمانَ العظيمِ" لن يكونَ ذلكَ كلاماً فيه مبالغةٌ.

وفي نهايةِ الكتابِ، لا يقدّمُ المؤلِّفُ تفسيراً للتباينِ في مسيرةِ التقدُّمِ لكلٍّ من أوروبا والعالمِ الإسلاميّ، والتي تنتهي بتفوُّقِ الغربِ. لكنَّهُ بعدَ أنْ يركّزَ على الدَّمارِ الَّذي ألحقَهُ المغولُ بالعالمِ الإسلاميّ يرى مورغان إمكانيَّةً للتعافي من نتائجِ الدَّمارِ في أعقابِ معركةِ عينِ جالوتَ. وتكمنُ في ذلك معلوماتٌ جيدةٌ تشكّلُ إضاءاتٍ على تاريخِ العالمِ الإسلاميّ ومحفّزةً لفهمِهِ أيضاً؛ ولكنْ لطبيعتِها ربَّما كانَتْ يعوزُها التفسيرُ أحياناً. ولا ننسى هنا أنَّ التفسيرَ الأحاديَّ أوِ النظرةَ الحتميَّةَ آفةُ البحثِ التاريخيّ.

وعلى أيَّةِ حالٍ، إنْ لم نستطعْ تفسيرَ الماضي، هل يخوّلُنا هذا مواجهةَ المستقبلِ بطريقةٍ لا نستطيعُ فيها أنْ نقولَ إلا القليلَ ونحن متأكّدونَ منهُ؟ ويطرحُ مورغان الفرضيَّةَ الآتيةَ في خاتمةِ الكتابِ:

"ربَّما اتَّخذَ التاريخُ مساراً آخرَ. ففي لحظةِ التَّوازنِ النَّادرةِ تلك بينَ الصِّينِ والهندِ والعالمِ الإسلاميّ وأوروبا في أواخرِ القرنينِ الخامسَ عشرَ والسادسَ عشرَ، كان يمكنُ لأيٍّ من

المتنافِسينَ في أوروبا اتِّخاذُ القراراتِ الحاسمةِ نفسِها والَّتي تولَّتْها إسبانيا والبرتغالُ وإنكلترا لدعمِ رحلاتِ الاستكشافِ والغزوِ. وكان يمكنُ للصينيّينَ الإبحارُ في المحيطِ الهادي بسهولةٍ، وربَّما سيطرَ الأتراكُ العثمانيُّونَ على الأطلسيِّ... يظنُّ هذا المؤلِّفُ أنَّ ذلك ممكنٌ حدوثُهُ. وكانَ من الممكنِ للمسيحيَّةِ أنْ تكونَ معرقلةً أكثرَ بمعارضةِ الماديَّةِ والتعصُّبِ، ولبضعِ زلَّاتٍ في التعاقبِ الملكيِّ أنْ تأتيَ بمحاكمِ التفتيشِ إلى إنكلترا، وأنْ يصبحَ أوليفر كروميل الراعيَ الرئيسَ للفلسفةِ السياسيَّةِ الإنكليزيَّةِ لا جون لوك. ففي هذا الكونِ المتشابهِ كانَ يمكنُ للعالمِ الإسلاميِّ قيادةُ عصرِ النَّهضةِ والتنويرِ الَّذي وضعَ بذورَهُ والاستمتاعَ بفوائدِهِ. وأنْ يقودَ المسلمونَ عصرَ الاكتشافِ والإمبرياليَّةِ الَّذي تولَّاهُ الأوروبيُّونَ بدلاً من ذلكَ. لا يظنُّ هذا المؤلِّفُ أنَّهُ كانَ هناكَ أيُّ حتميَّةٍ لنهوضِ الغربِ". (ص21).

وقد تُعجِبُ بعضُ الأفكارِ الواردةِ في الكتابِ القارئَ العربيَّ المسلمَ وقد لا تعجِبُهُ، فهي من دونِ شكٍّ ستحظَى بتقويمِهِ النقديِّ من قراءتِهِ المتفحِّصةِ. ومن الممكنِ الإشارةُ إلى المواضعِ الَّتي قد تثيرُ تبايناً في الرأيِ، لكنْ من الأفضلِ إفساحُ المجالِ أمامَ القارئِ الكريمِ من أجلِ الاطِّلاعِ على وجهةِ نظرِهِ في تاريخِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ ثمَّ تكوينِ رأيِهِ النقديِّ الموضوعيِّ المستقلِّ.

مكةُ، شبهُ الجزيرةِ العربيَّةِ، 570–732 ميلادي – بينَ العديدِ من خيوطِ نسيجِ التاريخِ العربيِّ الإسلاميِّ الضائعِ، يوجدُ خيطُ الوحيِ الإلهيِّ. هذا الوحيُ مشتركٌ، على نحوٍ مشابهٍ مع أنَّهُ متميِّزٌ، بينَ ثلاثةِ أديانٍ انحدرتْ من النبيِّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ. ونشأتِ الأديانُ الثلاثةُ من المصدرِ نفسِهِ، وهو عبادةُ اللهِ نفسِهِ، والتمسُّكُ بالعديدِ من القيمِ نفسِها، واستعمالُ العديدِ من الأسماءِ نفسِها من اللغةِ الأصليَّةِ نفسِها، وتوقيرُ العديدِ من القدِّيسينَ والأنبياءِ أنفسِهِمْ. ويبدأُ الخيطُ الثالثُ والأحدثُ للوحيِ على أطرافِ بلدةِ المقامِ المقدَّسِ العربيَّةِ القديمةِ، "مكَّةَ ".

وظهرَ مقامُ مكَّةَ قبلَ الإسلامِ في مكانٍ مقدَّسٍ يحدِّدُ نبعاً قيلَ إنَّهُ اكتُشِفَ من إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ، أبي اليهودِ والمسيحيِّينَ والمسلمينَ، في زيارةٍ إلى هناكَ في غابرِ الزَّمانِ. ويحتوي المقامُ أيضاً على صخرةٍ سوداءَ مباركةٍ سقطتْ من السماءِ –الكعبةُ. وتوجدُ في المقامِ ذي الشَّكلِ المكعَّبِ آثارٌ من اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ تتضمَّنُ صورةَ مريمَ العذراءِ والمسيحِ الرضيعِ؛ ورموزاً للميتراويَّةِ[10] والزرادشتيَّةِ والمانويَّةِ؛ وبضعةَ عجولٍ ذهبيَّةٍ ومصنوعاتٍ يدويَّةٍ مقدَّسةٍ لدى

طوائفَ وفرقٍ وأديانٍ أخرى. وتظنُّ عشائرُ مكَّةَ، التي تعتمدُ على زوَّارٍ دينيّينَ يقدّمونَ التبرُّعاتِ ويُنفِقونَ المالَ على الطعامِ والسَّكنِ، بشكلٍ مُحِقٍّ إنَّهُ لجذبِ أكبرِعددٍمن الحجَّاجِ ويجبُ أنْ يتمثَّلَ فيه أقصى عددٍ من الأديانِ.

مكةُ مدينةٌ تجاريَّةٌ نمَتْ نتيجةَ الدِّينِ، ووجودِ مؤمنينَ وغيرِ مؤمنينَ متعدِّدِي الأشكالِ. فالاقتصادُ المستندُ إلى الإيمانِ بآلهةٍ متعدِّدةٍ سيكونُ طريقةً يسيرةً لوصفِها. يقدِّمُ الكهنةُ المسيحيُّونَ تقاريرَهم إلى الكنيسةِ البيزنطيَّةِ، أوِ الآشوريَّةِ الشرقيَّةِ المعروفةِ أيضاً بالكنيسةِ النسطوريَّةِ؛ ويعلمُ الحاخاماتُ اليهودُ التوراةَ؛ ويوجد عبدة للنار وميتراويون وعبدة للخصوبة؛ وعرافون ومدعو الحكمة؛ ومعالجون وأطباء مشعوذون. ويوجدُ الَّذينَ ينتقُّونَ ويختارونَ ما يعبدونَ – والَّذينَ لا يختارونَ شيئاً.

الحياةُ والمجتمعُ هنا تحدِّدُهُما الطبيعةُ والمناخُ. والتزوُّدُ بالماءِ نادرٌ. والمشهدُ الطبيعيُّ في الجزيرةِ العربيَّةِ يقتصرُ كلِّيّاً تقريباً على صحارٍ ذاتِ رمالٍ ملتهبةٍ، وخطوطٍ ساحليَّةٍ وعِرةٍ وشواطئَ تغمرُها مياهٌ بلونٍ نيليٍّ نقيٍّ، وبروزاتٍ صخريَّةٍ متكرِّرةٍ من تلالٍ قاحلةٍ وجبالٍ مدبَّبةٍ جداً، ومسطَّحاتٍ سوداءَ من حجارةٍ بركانيَّةٍ خلَّفَها تدفُّقُ الحممِ في عهودٍ قديمةٍ. وبينما تتناثرُ بضعُ بلداتٍ ومدن مرافئَ على أطرافِ هذا المكانِ الواسعِ، فإنَّ الداخلَ كالحٌ ويبدُو مميتاً غالباً. والحياةُ بعيداً عن ساحلِ البحرِ ناجمةٌ عن تلكَ الينابيعِ القليلةِ والواحاتِ الَّتي تظهرُ، كأنَّها نتيجةُ معجزةٍ، في أكثرِ الأماكنِ قُحولاً. وتُمكّنُ هذه الواحاتُ من زراعةِ الحنطةِ والشعيرِ ورعايةِ أشجارِ النخيلِ؛ وهي تقدِّمُ قليلاً من الظِّلِّ. وخارجاً تحتَ أشعَّةِ شمسِ الصيفِ المباشرةِ، يمكنُ أنْ تصلَ درجاتُ الحرارةِ الصباحيَّةِ بشكلٍ دائمٍ إلى 120 درجةَ فهرنهايت، وهي من الأشدِّ حرارةً على وجهِ الأرضِ. وفي ليلِ الشتاءِ، يمكنُ للحرارةِ المنتشرةِ في الفضاءِ من الجوِّ الصافي أنْ تسبِّبَ برداً قاسياً جداً يجمِّدُ العظامَ.

ومع ذلك هذه القسوةُ لا تعني غيابَ الحياةِ، حتى الحياةُ المتحضِّرةُ، أوِالتاريخُ. وبينما تمنعُ قلَّةُ الماءِ ظهورَ المدنِ والمجتمعاتِ الكبيرةِ، فهي لا تحدُّ من تاريخِ الجزيرةِ العربيَّةِ الطويلِ والغنيِّ. وبحلولِ القرنِ السادسِ كان للجزيرةِ العربيَّةِ تفاعلٌ مديدٌ مع الحضاراتِ القديمةِ، مثلِ: مصرَ وفينيقيَّةَ والإمبراطوريَّةِ الآشوريَّةِ وبلادِ فارسَ واليونانِ والهندِ وروما وبيزنطةَ في تجارةِ التوابلِ واللبَّانِ

الثمينِ ونباتِ المرِّ. والجزيرةُ العربيَّةُ مجاورةٌ بشكلٍ مباشرٍ للطبيعيَّةِ القديمةِ المدوَّنةِ في التوراةِ اليهوديَّةِ والكتابِ المقدَّسِ المسيحيِّ.

وفي هذا المكانِ الغنيِّ والقاسي، الوحدةُ الأساسيَّةُ للقانونِ والنظامِ هي العشيرةُ المؤلَّفةُ من قبائلَ. والمجتمعُ فسيفساءٌ من العشائرِ، التي تقيمُ باستمرارٍ التحالفاتِ، وتتبادلُ التجارةَ، وتلاحقُ المظالمَ، وتتنازعُ أحياناً. وبينما كان معظمُ السُّكانِ العربِ في القرنِ السادسِ من البدوِ، فإنَّ قاعدةً مماثلةً للعشيرةِ تنطبقُ على البلداتِ. فالعشيرةُ تقرِّرُ كلَّ شيءٍ في النهايةِ، وويلٌ للفردِ الَّذي لا ينتمي إلى عشيرةٍ، لأنَّهُ سينتهي في كثيرٍ من الأحيانِ عبداً، من دونِ حقوقٍ على الإطلاقِ. ويقابلُ هذا المشهدَ السياسيَّ العربيَّ في مكَّةَ وشبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ خلفيَّةُ الإمبراطورياتِ المجاورةِ الكبيرةِ الشأنِ والدُّويلاتِ الأصغرِ التابعةِ لها. والدولُ الكبرى هي بيزنطةُ وبلادُ فارسَ السَّاسانيَّةُ؛ والدولُ التابعةُ هي مصرُ وسوريا وفلسطينُ وبلادُ ما بينَ النَّهرينِ. وإثيوبيا المسيحيَّةُ هي عبرَ البحرِ فحسبُ.

وُلِدَ إنسانٌ في هذا المشهدِ المتَّقدِ، حوالي عامِ 570م، هو محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، الشابُّ النَّبيلُ النَّسبِ، ولكنْ بظروفٍ متواضعةٍ، وتيتَّمَ في سنٍّ مبكِّرةٍ. ولم يكنْ يملكُ ثروةً أو سلطةً، وكان ذكيَّاً وحسَّاساً. وكانَ، بصفتِهِ راعياً شابَّاً، يراقبُ الشمسَ والقمرَ والنُّجومَ وهي تتقدَّمُ عبرَ السماءِ. ويراقبُ حركةَ القوافلِ وصراعَ الحيواناتِ في الطبيعةِ. ويسمعُ تراتيلَ العديدِ من كتبِ الأديانِ؛ ويشعرُ بالحقيقةِ القاسيةِ للفاقةِ والظلمِ. ومحمَّدٌ من الأسرةِ الهاشميَّةِ وهي جزءٌ من قبيلةٍ تُدعَى "قريشٌ".

إنَّهُ وسيمٌ وجديرٌ بالثقةِ للغايةِ؛ وحينَ يكبُرُ يعتني بجِمالِ إحدى عشائرِ القوافلِ الكبيرةِ في مكَّةَ. ومن هناكَ يرتقِي لقيادةِ القوافلِ وإدارةِ الأعمالِ. وهو يؤدِّي ذلكَ بشكلٍ جيدٍ جدَّاً، ويزيدُ ثروةَ المالكِينَ. وحين يبلغُ الخامسةَ والعشرينَ من عمرِهِ، تبرزُ إحدى المالكاتِ اسمُها خديجةُ، وهي أرملةٌ غنيَّةٌ مستقلَّةٌ وذاتُ ذهنٍ تجاريٍّ وتمتلكُ حسَّاً أخلاقيَّاً قويَّاً. لكنَّها وحيدةٌ أيضاً. ومع ذلكَ رفضتِ العديدَ من الخاطِبينَ الأغنياءِ. لكنَّها تنتبِهُ إلى هذا الشابِّ الَّذي يعملُ لديها. ومع أنَّها تكبُرُهُ بخمسَ عشرةَ سنةً، ترسلُ إليهِ في وقتٍ ما رسالةً توافقُ فيها على طلبِهِ للزَّواجِ. ويعبِّرُ هو عن شكرِهِ لهذا. ويتزوَّجانِ.

يزدهرُ العملُ، ومع أنَّهما يفقدانِ صبيَّينِ في طفولتِهما، فإنَّ أربعَ بناتٍ يعشْنَ. وبسببِ زواجِهِ ونجاحِهِ، يستطيعُ محمَّدٌ الآنَ امتلاكَ التأثيرِ في المجتمعِ المتعادلِ مع نسبِهِ. وكما هي العادةُ في عصرِهِ وثقافتِهِ، خلالَ العقودِ التاليةِ لوفاةِ خديجةَ، سيتزوَّجُ من نساءٍ أخرياتٍ؛ وستكونُ أغلبُ زيجاتِهِ بناءً على أمرٍ إلهيٍّ أو لأسبابٍ دينيَّةٍ.

مثلُ الجميعِ تقريباً في عصرِهِ، لم يتعلَّمْ محمَّدٌ رسميَّاً. وتذكُرُ المصادرُ التقليديَّةُ أنَّهُ لا يعرفُ القراءةَ أوِ الكتابةَ. فوسيلةُ الاتِّصالِ شفهيَّةٌ، وأسمى فنٍّ هو النظمُ الشِّعريُّ. وأعظمُ العقولِ وأكثرُها إبداعاً في المجتمعِ تعبِّرُ عن نفسِها بالشِّعرِ، وبينَ طقوسِ الجوائزِ في المجتمعِ مسابقاتٌ للإلقاءِ وروايةِ القصصِ. هذا الشابُّ، مع أنَّهُ ليسَ شاعراً، مثلُ كلِّ شخصٍ في الجزيرةِ العربيَّةِ كانَ يتأثَّرُ كثيراً بالصوتِ الشاعريِّ.

إنَّ لغةَ الناسِ هي العربيَّةُ الفصيحةُ، وبالنسبةِ إلى الَّذينَ يعرفونَ الكتابةَ، الحرفُ الَّذي يستعملونَهُ هو شكلٌ زخرفيٌّ مقوَّسٌ من خطِّ اليدِ، يعبِّرُ عن إدراكٍ ووعيٍ مختلفٍ كليَّاً عنِ الحرفِ الرُّومانيِّ. فالأبجديَّةُ الرومانيَّةُ لها أحرفٌ صلبةٌ ومنتظمةٌ مثلُ تيجانِ الأعمدةِ ومنطقِ القانونِ الرومانيِّ؛ وخطُّ اليدِ العربيُّ إلى حدٍّ أكبرَ عملٌ فنِّيٌّ وروحانيٌّ.

وربما كانَ للقصَّةِ أنْ تنتهيَ هنا، مع هذا الرجلِ الناجحِ في التجارةِ المكيَّةِ، بعدَ كبرِ زوجتِهِ في السنِّ ثمَّ وفاتِها، مخلِّفةً وراءَها عشيرةً كبيرةً وناجحةً ومؤثِّرةً. إلا أنَّ محمَّداً في الأربعينَ من عمرِهِ تقريباً، يبدأُ بتلقِّي وحيٍ إلهيٍّ. في البدايةِ يخشَى أنَّهُ قد جُنَّ. ووفقاً لرواياتِ السِّيرةِ، يستشيرُ خديجةَ، وهو مرتبكٌ، فتأخذُهُ إلى راهبٍ مسيحيٍّ من النُّسطوريِّينَ. ويطلبُ منه الكاهنُ أنْ يكونَ مرتاحَ البالِ وممتنَّاً للهِ، لأنَّ الرُّؤى رسائلُ من اللهِ.

ويتقبَّلُ محمَّدٌ ﷺ أنَّ هذا الوحيَ كلمةُ اللهِ. ويأمرُهُ كبيرُ الملائكةِ جبريلُ أنْ يقرأَ، وعبرَ ذهنِهِ وخارجَ فمِهِ تنطلقُ تلاوةٌ عذبةٌ متدفِّقةٌ غزيرةٌ تستمرُّ 23 سنةً أخرى، حفظَها في البدايةِ هذا النَّبي ﷺ الجديدُ ثمَّ أتباعُهُ. ومع الوقتِ، تتجلَّى في ذاك التدفُّقِ من الكلماتِ صورُ وبُنَى دينٍ، مع أنَّهُ يمجِّدُ سلسلةَ الأنبياءِ اليهودِ والمسيحِ وينحدرُ منهمْ، يضيفُ هدايةً جديدةً معيَّنةً، لا تدورُ حولَ علاقةِ المرءِ المباشرةِ باللهِ فحسبُ، ولكنْ بكيفيَّةِ ربطِهِ عناصرَ أخرى باللهِ تعبِّرُ كلُّها عنهُ. وهذه التلاوةُ معروفةٌ بالقرآنِ، وهو، وفقاً للدِّينِ الإسلاميِّ، الكلمةُ الحرفيَّةُ للهِ أوحَى بها إلى

النَّبيّ ﷺ بواسطةِ جبريلَ. وثمَّةَ مجموعةٌ منفصِلةٌ من أقوالِ النَّبيّ ﷺ الأخرى تُدعَى "الحديثَ". ومجموعةُ أعمالِهِ وأقوالِهِ تُدعَى "السُّنَّةَ".

وأركانُ الدِّينِ الجديدِ الخمسةُ هي: الخضوعُ للهِ ونبيِّهِ الوحيدِ، والصلاةُ باتِّجاهِ مكَّةَ خمسَ مرَّاتٍ كلَّ يومٍ بقولِ بعضِ الكلامِ المقدَّسِ، واستقطاعُ جزءٍ من مواردِ المرءِ للمحتاجينَ، والصومُ والامتناعُ عنِ المتعِ الأخرى من الفجرِ حتى المغربِ خلالَ شهرِ رمضانَ، وعندَ الاستطاعةِ، القيامُ بالحجِّ إلى مكَّةَ المكرَّمةِ. بعدَ هذه النقاطِ، يعالجُ القرآنُ أهميَّةَ المحافظةِ على النظافةِ والصحَّةِ، وإدارةِ شؤونِ المرءِ الدنيويَّةِ بشكلٍ أخلاقيٍّ، وجعلِ المجتمعِ أكثرَ كرَماً وإنسانيَّةً. ويدعمُ الحاجةَ لمنحِ النِّساءِ حقوقَهنَّ، واكتسابِ المعرفةِ، والدخولِ في كفاحٍ شخصيٍّ من أجلِ الحقِّ (الجهاد)، والدفاعِ عنِ الإسلامِ.

ووفقاً للقرآنِ الكريمِ، اسمُ هذا الدِّينِ هو الإسلامُ، الَّذي يعني في اللغةِ العربيَّةِ شيئاً مشابِهاً "للاستسلامِ" أوِ "الخضوعِ لإرادةِ اللهِ، "وهو يتعلَّقُ بكلمةِ السَّلامِ العربيَّةِ. في شكلِهِ النهائيِّ، جرى تنظيمُ القرآنِ لا وفقَ التَّرتيبِ الَّذي أُوحِيَ به، ولكنْ بشكلٍ يتَّفقُ تقريباً مع الطولِ من أطولِ السُّورِ إلى أقصرِها. وبينما جرى حفظُهُ وتدوينُهُ، فإنه لم يُجمَعْ في مخطوطٍ إلا بعدَ 20 سنةً من وفاةِ محمَّدٍ ﷺ[11]. إنَّ واجبَ بعضِ أتباعِهِ، وأصلَ النزاعِ والصراعِ في المستقبلِ، سيكمُنانِ في الاتِّفاقِ على مقاصدِ اللهِ كما تبدَّتْ في الكلماتِ الَّتي قالَها النَّبيُّ ﷺ، في الحالاتِ المستجدَّةِ خصوصاً والَّتي تتجلَّى بمرورِ الوقتِ ويبدُو أنَّهُ ليس لها مقابلٌ مباشرٌ في التلاوةِ، أو تبدُو متناقضةً.

إنَّ بعضَ الأقوالِ المنسوبةِ إلى النَّبيّ ﷺ ستساعدُ في دفعِ الازدهارِ الفكريِّ القادمِ للحضارةِ الإسلاميَّةِ وإطلاقِ السعيِ للمعرفةِ والاكتشافِ. مثلُ هذه الأقوالِ تتضمَّنُ:

إنَّ مِدادَ العالِمِ أقدسُ من دمِ الشَّهيدِ. اكتسبُوا العلمَ، لأنَّ مَنْ يكتسِبُهُ في سبيلِ اللهِ يؤدِّي عملاً تقيًّا؛ ومَنْ يتكلَّمُ عنهُ، يمدحُ اللهَ؛ ومَنْ يسعَى إليهِ، يعبدُ اللهَ؛ ومنْ يوزِّعُ أمراً فيهِ، يوزِّعُ الصَّدقاتِ؛ ومَنْ يمنحُهُ أهدافَهُ الملائمةَ، يؤدِّي فعلَ الولاءِ للهِ.

يتيحُ العلمُ لمالكِهِ تمييزَ الحقِّ من الباطلِ؛ ويضيءُ الطريقَ إلى الجنَّةِ؛ إنَّهُ

صديقُنا في الصحراءِ، ومجتمعُنا في العزلةِ، ورفيقُنا عندما نُحرَمُ الأصدقاءَ؛ ودليلُنا إلى السَّعادةِ؛ إنَّهُ يقوّينا في البؤسِ؛ وهو زينتُنا في صحبةِ الأصدقاءِ ودرعٌ ضدَّ الأعداءِ(12).

إنَّ أوسعَ أثرٍ ثقافيّ وتاريخيّ لتلكَ الكلماتِ والأقوالِ سيحدثُ في المستقبلِ.

وبينما يتَّبعُ النَّبيُّ ﷺ أيضاً الوصيَّةَ لنشرِ هذه الرسالةِ إلى الآخرينَ، يحاولُ قلبَ نظامِ مكَّةَ الدينيّ. ومطالباتُهُ برميِ العديدِ من الأصنامِ الموجودةِ في المقامِ من أجلِ الإلهِ الواحدِ كانتْ مرفوضةً؛ لأنَّها تسيءُ إلى التجارةِ. وإصرارُهُ المستمرُّ بأنَّهُ يأتي بكلمةِ اللهِ ذاتِها تجعلُ الأصدقاءَ والحلفاءَ القدماءَ ينقلبونَ عليهِ، بينما يصدِّقُ آخرونَ رسالتَهُ وينضمُّونَ إليهِ. وأخيراً، بينما تبدأُ تلاوتُهُ بتمزيقِ إجماعِ مكَّةَ كليّاً، يكونُ أعداؤُهُ عديدينَ وعنيفينَ جداً خطَّطوا لقتلِهِ. ومن أجلِ النجاةِ، يقودُ أتباعَهُ إلى واحةٍ قربَ المدينةِ، وهناك يبدأُ بتحصينِ نفسِهِ ضدَّ أصحابِ النفوذِ في مكَّةَ.

ويحاولُ أعداؤُهُ في مكَّةَ مهاجمتَهُ مرَّاتٍ لكنَّهمْ يُخفِقونَ، وينقلبُ بعضُ حلفائِهِ عليهِ. ويربحُ المعركةَ النهائيَّةَ ويفتحُ مكَّةَ، ويكونُ كريماً مع الَّذينَ ينضمُّونَ إليهِ، ومتسامحاً مع الَّذينَ يكفُّونَ عن معارضتِهِ. ثم يبدأُ هو وأتباعُهُ في عمليَّةِ إحداثِ سلسلةٍ من التَّحالفاتِ مع العشائرِ الأخرى لنشرِ الدِّينِ بالجزيرةِ العربيَّةِ كلِّها. وفي الوقتِ نفسِهِ يتابعُ أمرَهُ في منحِ مكانةٍ خاصَّةٍ إلى أهلِ الكتابِ، أتباعِ الدِّينَينِ الآخرَينِ الَّلذينِ انحدَرا من إبراهيمَ: اليهودِ والمسيحيّينَ.

ويصبحُ النَّبيُّ ﷺ الآنَ في ستّينيَّاتِهِ. ويبدأُالتحدُّثَ عن كونِهِ فانياً، معَ عدمِ وضوحٍ أنَّهُ مسموعٌ. وفيما يُعتبَرُ خطبةَ وداعِهِ، يَعرِضُ أيضاً بعضَ المبادئِ التَّنبُّؤيَّةِ والمستقبليَّةِ الَّتي سيقاتلُ الناسَ من أجلِها طوالَ ألفِ سنةٍ آتيةٍ، مثلُ المبدأِ الواردِ حولَ المساواةِ العنصريَّةِ والعرقيَّةِ:

جميعُ البشرِ من آدمَ وحوَّاءَ، ليسَ لعربيٍّ فضلٌ على أعجميٍّ ولا لأعجميٍّ فضلٌ على عربيٍّ؛ وليسَ لأبيضَ فضلٌ على أسودَ، ولا لأسودَ فضلٌ على أبيضَ –إلا بالتَّقوى والعملِ الصَّالحِ.

ولا تمرُّ فترةٌ طويلةٌ بعد تلكَ الخطبةِ حتى يمرضَ النَّبيُّ ﷺ ويُتَوفَّى. مع أنَّهُ كانَ ينبِّهُ أتباعَهُ لبعضِ الوقتِ بأنَّهُ ليسَ خالداً، فعندما يُتَوفَّى، يُفجَعُ أتباعُهُ ويتعجَّبونَ، ويَحزنونَ طوالَ أيامٍ.

ويشعرُ العديدُ منهم بالقلقِ حولَ مَنْ سيتولَّى قيادتَهُمْ. وتصبحُ قضيَّةُ الخلافةِ موضعَ جدلٍ في المجتمعِ الإسلاميِّ الفتيِّ، ويبقى السؤالُ: مَنْ منهُم يستحقُّ أنْ يأخذَ مكانَ النَّبيِّ ويوجِّهُ المجتمعَ نحوَ المستقبلِ؟

ودعمتْ إحدى الجماعاتِ أبا بكرٍ ﷺ، والدَ عائشةَ زوجةِ محمَّدٍ ﷺ، مستشهدةً بحسنِ قيادتِهِ واستقامتِهِ ورحمتِهِ وحكمتِهِ، وقربِهِ من النَّبيِّ ﷺ –كانَ رفيقَ محمَّدٍ ﷺ، وأحدَ أوَّلِ المهتدينَ إلى الإسلامِ، وأحبَّهُ النَّبيُّ ﷺ ووثقَ بهِ. ألم يطلبْ وهوَ على فراشِ موتِهِ من أبي بكرٍ ﷺ أنْ يؤمَّ المجتمعَ في الصَّلاةِ؟ لذلكَ بالتَّأكيدِ، كما كانوا يناقشونَ، سيختارُ النَّبيُّ ﷺ رجلاً مثلَ هذا لقيادةِ المجتمعِ.

وتقفُ جماعةٌ أخرى إلى جانبِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ، مستشهدةً بأنَّهُ من بيتِ النَّبيِّ ﷺ نفسِهِ، وأحبَّهُ مثلَ ابنِهِ، وفضَّلهُ على جميعِ الرجالِ ليكونَ زوجَ ابنتِهِ، فاطمةَ. ويقولونَ إنَّ النَّبيَّ ﷺ ذاتَ مرَّةٍ رفعَ ذراعَ عليٍّ ﷺ عالياً في الهواءِ تحتَ شمسِ العصرِ الحارَّةِ معلِناً أنَّهُ خليفتُهُ وقائدُهُ.

ويومَ وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، تجمَّعتْ فئةٌ من الرجالِ في فناءِ منزلٍ للمشاورةِ وانتخاب خليفةٍ. وتختارُ هذه الفئةُ أبا بكرٍ وتضعُ عليه عباءةَ القيادةِ. وفي اليومِ التالي، أمامَ المجتمعِ، يقفُ أبو بكرٍ ﷺ على منبرِ المسجدِ حيثُ خطبَ النَّبيُّ ﷺ ذاتَ مرَّةٍ ويُبايَعُ بصفةِ أولِ خليفةٍ للإسلامِ.

ولكنْ ليسَ الجميعُ موافقِينَ. فثمَّةَ مَنْ يشعرونَ بأنَّ عليَّاً ﷺ قدِاغتُصِبتْ منهُ أهليَّتُهُ للخلافةِ، وأنَّ الَّذينَ اختارُوا رجلاً آخرَ أساؤُوا إلى رغباتِ النَّبيِّ ﷺ نفسِها. وأحدثتْ هذه التوتُّراتُ السياسيَّةُ حولَ الخلافةِ فجواتٍ عميقةً في المجتمعِ، مقسِّمةً ولاءَهُ ومؤدِّيةً به إلى ما سيشكِّلُ لاحقاً الانشقاقَ الدينيَّ في الإسلامِ بينَ السُّنَّةِ والشِّيعةِ.

يقولُ أبو بكرٍ ﷺ في خطبتِهِ الأولى:

أيُّها الناسُ قد وُلِّيتُ عليكُمْ، ولستُ بخيرِكمْ، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوِّمُوني، الصِّدقُ أمانةٌ، والكذبُ خيانةٌ، والضعيفُ فيكُم قويٌّ عندي حتَّى آخُذَ له حقَّهُ، والقويُّ عندي ضعيفٌ حتَّى آخُذَ منه الحقَّ.

وإنْ زرعتْ قضيَّةُ الخلافةِ بذورَ الشِّقاقِ التالي في الإسلامِ، فإنَّها ستُثيرُ أيضاً نقاشاً عميقاً حول أمورِ القيادةِ والشُّورى السياسيَّةِ وذلكَ سيُثيرُ أسئلةً لاحقةً في الدَّولةِ والسِّياسةِ.

وستتضمَّنُ قضايا مثلَ كيف يجبُ اختيارُ قائدٍ ومَنْ يختارهُ؟؛ وأيُّ مزايا يجبُ أنْ تكونَ لديهِ؟؛ وكيف ستكونُ أهميَّةُ الجاذبيَّةِ والعلمِ الشخصيَّينِ؟؛ وأيُّ دورٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ وروحيٍّ يجبُ أنْ يضطلعَ به قائدٌ كهذا في المجتمعِ؟.

وثمَّةَ فكرةٌ مهمَّةٌ تؤدِّي دوراً في الفكرِ السِّياسيِّ والقانونيِّ الإسلاميِّ هي مبدأُ رأيِ الأغلبيَّةِ في اتِّخاذِ القراراتِ. وظهرتِ الفكرة تحتَ عدَّةِ أسماءٍ، بما في ذلكَ الإجماعُ والجمهورُ (الأغلبيَّة) والشُّورى (الاستشارةُ). والشُّورى هي التقليدُ الَّذي قوَّمَهُ محمَّدٌ ﷺ، ووفقاً لها كانتِ القراراتُ الَّتي تؤثِّرُ في المجتمعِ ستصدرُ بالتَّشاورِ مع أفرادٍ من المجتمعِ. وفي الحقيقةِ، ثمَّةَ سورةٌ في القرآنِ اسمُهاالشُّورى، بالإشارةِ إلى آيةٍ تذكرُ أنَّ المقرَّبينَ منَ اللهِ يجبُ أنْ يُديرُوا شؤونَهم بالاستشارةِ اللَّازمةِ مع الآخرينَ.

وفيما يتعلَّقُ بالقيادةِ في المجتمعِ الإسلاميِّ المبكِّرِ، ستصبحُ الشُّورى ورأيُ الأغلبيَّةِ مسألتَينِ مهمَّتَينِ في الجدلِ. فبينما سيُصِرُّ بعضُ الشِّيعةِ لاحقاً على أنَّهُ لم تتمَّ استشارةُ الجميعِ عندَ انتخابِ أبي بكرٍ ﷺ قائداً للمجتمعِ بدلاً من عليٍّ ﷺ، سيناقشُ العديدُ من السُّنَّةِ بأنَّ الأغلبيَّةَ، في الحقيقةِ، جرتِ استشارتُها وأنَّهمُ اتَّفقُوا على قيادةِ أبي بكرٍ. وإنِ استمرَّتْ فكرةُ رأيِ الأغلبيَّةِ وأهميَّتُها في السِّياسةِ والقانونِ والعلومِ الدينيَّةِ في كونِها محلَّ نقاشٍ طوالَ قرونٍ في جميعِ أنحاءِ العالمِ الإسلاميِّ، فإنَّ محاولةً ستُجرَى في العصورِ الأحدثِ من بعضِ المسلمينَ لدمجِ أعرافٍ تقليديَّةٍ، مثلِ: عمليَّةِ الشُّورى مع أفكارٍ سياسيَّةٍ أحدثَ مثلِ الديمقراطيَّةِ التمثيليَّةِ.

ولكنْ في تلكَ الأيامِ الأولى للإسلامِ بعدَ وفاةِ مؤسِّسهِ، لا تزالُ المشكلةُ قيادةً جديدةً مشكوكاً فيها. وإنِ انضمَّتْ أغلبُ الجزيرةِ العربيَّةِ إلى المسلمينَ، فإنَّها لا تزالُ أرضاً قاحلةً، ومنطقةً معزولةً نسبياً وبعيدةً عنِ المدنِ الغنيَّةِ ومراكزِ القُوى في البحرِ المتوسطِ وبلادِ فارسَ والهندِ. ولمَّا ضعُفتْ عن بيزنطةَ وبلادِ فارسَ المجاورةِ، فمنْ غيرِ المحتملِ كما يبدو أنْ تكونَ مرشَّحةً لتغييرِ العالمِ.

لكنَّ ذلك هو ما يحدثُ تماماً طوالَ السنواتِ المئةِ التاليةِ. أمَّا لماذا بالضبطِ يحدثُ هذا التحولُ غيرُ المتوقَّعِ فهو ضائعٌ في التاريخِ؟.

إنّ السَّردَ التقليديَّ المدوَّنَ بعد قرونٍ من الحدثِ يصوِّرُ نهوضَ المسلمينَ العربِ على شكلِ حملةِ غزوٍ يدفعُها حافزُ الدِّينِ وحدَهُ. ووفقَ هذا الرأيِ، تتدفَّقُ الجيوشُ العربيَّةُ تحتَ قيادةِ أبي بكرٍ، مُلْهَمَةً بالأمرِ لنشرِ الدِّينِ ومقتديةً بحملةِ النَّبيِّ ﷺ الناجحةِ خلافاً للاحتمالاتِ الكبيرةِ، وتتقدَّمُ من الجزيرةِ العربيَّةِ إلى العالمِ المحيطِ بها.

ويحسبُ رأيٌ آخرُ أنَّهُ وإنْ عظُمَ شأنُ الدِّينِ، فإنَّ خيوطاً أخرى مثلَ الميلِ المفاجئِ للثَّروةِ، والحظِّ الطيِّبِ، ووجودِ عدوَّينِ كانا مرعبَينِ سابقاً أضعفَهما قتالُ أحدِهما للآخرِ أمرٌ حاسمٌ أيضاً.

ففي عصرِ النَّبيِّ ﷺ، لم تكنِ الدَّولتانِ المتنافستانِ –بيزنطةُ وبلادُ فارسِ– تتقاتلانِ كي تشلَّ وتنهكَ إحداهما الأخرى في ذلك فحسبُ، لكنَّهما بدأتَا بالتَّعدّي على العربِ في الشمالِ والشرقِ. لذلك فإنَّ المسلمينَ الأوائلَ، بعدَ أنْ أسَّسُوا دولتَهمُ الجديدةَ في الجزيرةِ العربيَّةِ، انطلقُوا لطردِ المحتلِّينَ البيزنطيِّينَ والفرسِ لتحصينِ حدودِهمْ وحمايةِ تجربتِهمُ الجديدةِ.

لكنَّ شيئاً غريباً يحدثُ. فبينما يتقدَّمُ العربُ، يتراجعُ عدوَّاهُمُ الأجنبيَّانِ. وربَّما مع توقُّعِ تشكيلِ خطٍّ صلبٍ من مقاومةِ العدوِّ في مكانٍ ما خارجَ الجزيرةِ العربيَّةِ، فإنَّ العربَ يُدهَشونَ لرؤيةِ عدوِّهِمْ ينحسرُ باستمرارٍ. وهكذا تكتسبُ المحاولةُ العربيَّةُ لتعزيزِ الحدودِ ديناميكيَّةً حقيقيَّةً جديدةً كليَّاً. وفجأةً، تصبُّ الإتاوةُ والغنائمُ والضرائبُ في الخزانةِ العربيَّةِ من الأراضي المفتوحةِ. ومثلما فرضَ البيزنطيُّونَ الضريبةَ على مصرَ وسوريا واحتلُّوهُما لدعمِ الإمبراطوريَّةِ الَّتي مقرُّها القسطنطينيَّةُ، يحصلُ العربُ الآنَ على مذاقِ الشيءِ نفسِهِ.

الأبوابُ الَّتي كانتْ مغلقةً سابقاً تنفتح؛ والفرصُ غيرُ المتوقَّعةِ تظهرُ. وهكذا اتُّفِقَ أنَّ النِّساءَ والأولادَ، وهم ينشدونَ أناشيدَ المعاركِ القديمةِ ويُلقُّونَ قصائدَ حروبِ الجزيرةِ العربيَّةِ القديمةِ، يمدحونَ ويباركونَ أزواجَهمْ وآباءَهمْ وإخوتَهمْ ويرسلونَهمْ مندفعِينَ بقوَّةٍ خارجَ البلداتِ والمعسكراتِ العربيَّةِ، متَّجهينَ إلى المدنِ الأسطوريَّةِ في الشمالِ والشرقِ والغربِ. ينطلقُ المحاربونَ العربُ إلى الأماكنِ نفسِها الَّتي عرفُوها طويلاً من تجارةِ القوافلِ. وباعتيادِهمْ على مقاومةٍ أو مضايقةٍ أو إقامةِ هدنةٍ مع جيشي بيزنطةَ وبلادِ فارسَ الأقوى، يتحوَّل العربُ، متشرِّبينَ بحماسٍ وقوَّةٍ منفصلينِ عن أيِّ سعي لثروةٍ كبيرةٍ من الأرضِ أوِ العلم، وعن أيِّ تاريخ عظيمٍ وفخمٍ أو

تقليدٍ للغزوِ والهيمنةِ. إنَّهمْ يتدفَّقونَ متقدِّمينَ بطريقةٍ تحرِّكُ النَّبيَّ ﷺ نفسَهُ، والَّذي بدأ من دونِ أيِّ شيءٍ واستطاعَ ذاتَ يومٍ أنْ يُحَوِّلَ الجزيرةَ العربيَّةَ كلَّها.

إنَّ نتائجَ هذه الحملةِ العرضيَّةِ والمرتجَلةِ تقريباً لا تُصدَّقُ. فبعدَ وفاةِالنَّبيِّ ﷺ بسنتينِ، تستولي الجيوشُ العربيَّةُ بسرعةٍكبيرةٍ على أجزاءٍ واسعةٍ من بيزنطةَ، بما في ذلك سوريا وفلسطينُ. ويَخلُفُ الخليفةَ أبا بكرٍ ﷺ الخليفةُ عمرُ ﷺ، الَّذي يقودُ قوَّاتِهِ في عمقِ الإمبراطوريتَينِ البيزنطيَّةِ والفارسيَّةِ. وفي معركةِ اليرموكِ في سوريا عام 636م، يدمِّرُ عمرُ ﷺ قوَّاتِ الإمبراطورِ البيزنطيِّ هرقلَ. وبحلولِ عامِ 642م يكونُ عمرُ ﷺ قد أرسلَ جيوشَهُ لفتحِ مصرَ البيزنطيَّةِ، وتبدأ بالتقدُّمِ شمالَ أفريقيا. وفي عامِ 644م يخلفُ الخليفةُ عثمانُ ﷺ عمرَ ﷺ؛ وتضمُّ قوَّاتُهُ بلادَ فارسَ في عام 651م.

في الروايةِ الغربيَّةِ لتاريخِ التقدُّمِ الإسلاميِّ العربيِّ، يقتصرُ هذا القرنُ الأوَّلُ الحاسمُ من الإسلامِ على سلسلةِ تواريخَ ومعاركٍ وفتوحاتٍ، مصوَّرةٍ على أنَّها العبءُ الَّذي فرضَهُ نظامٌ دينيٌّ جديدٌ. ومع ذلك بينما يُعدُّ التقدُّمُ العربيُّ في هذه السنواتِ المبكِّرةِ، في الحقيقةِ، إلى حدٍّ كبيرٍ حملةً عسكريَّةً، مع كلِّ التأثيراتِ المؤسفةِ المرافقةِ الَّتي تحدثُ في الحروبِ، تُفقِدُ بعضُ هذه الرواياتِ تاريخَ الأحداثِ الأخرى الأكثرِ دقَّةً الحادثةَ على مستوى أرضِ الواقعِ.

أولاً، تُفقِدُ لوحةُ التاريخِ التقليديِّ العنصرَ المتَضَمِّنَ أنَّ الانتشارَ السريعَ للإسلامِ سببُهُ إلى حدٍّ ما نجاحُهُ الاقتصاديُّ، لا الغزوُ والإجبارُ على اعتناقِ الإسلامِ. فالنظامُ العربيُّ في دفعِ رواتبِ الجنودِ نقداً يؤدِّي دوراً مهمَّاً في إحداثِ اقتصادِ السوقِ المدنيِّ المؤسَّسِ على النقدِ في العالمِ الإسلاميِّ المبكِّرِ. وهذا يعني أنَّ كميَّةً هائلةً من النقودِ توضَعُ في التداولِ، فيؤدِّي ذلك إلى تمدينِ الحياةِ التِّجاريَّةِ وتنشيطِها في البلداتِ والمدنِ التي بدأتْ بالهبوطِ اقتصادياً تحتَ حكمِ البيزنطيِّينَ والفرسِ.

ثانياً، تفتقدُ هذه اللوحةُ إلى العنصرِ المتَضَمِّنِ أنَّ تحويلَ الناسِ المتعرِّضينَ للغزوِ إلى الدِّينِ الجديدِ يكونُ غالباً في نهايةِ جدولِ أعمالِ سياسيِّي الإمبراطوريَّةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ الصَّاعدةِ. فالمسلمونَ يظلُّونَ أقليَّةً في العديدِ من المناطقِ التي يحكمُونَها. وفي بعضِ الأماكنِ، مثلِ بلادِ

فارسَ، يشكِّلُ المسلمونَ أقلَّ من عشرةٍ بالمئةِ من السُّكانِ في القرنِ الأوَّلِ للإمبراطوريَّةِ الإسلاميَّةِ.

ليسَ لدى الحكَّامِ العربِ أمرٌ دينيٌّ رسميٌّ قويٌّ –وربَّما عقبةٌ ماليَّةٌ رئيسةٌ– لتحويلِ الناسِ الَّذينَ يغزونَهُمْ إلى الإسلامِ. فالحكَّامُ العربُ يحصلونَ على الدَّخلِ الرئيسيِّ بفرضِ الضريبةِ على أهلِ الكتابِ، لذلك تحويلُ اليهودِ والمسيحيِّينَ إلى الإسلامِ يعني خسارةَ الدَّخلِ، وتوسيعَ الخدماتِ الاجتماعيَّةِ أيضاً إلى الَّذينَ أسلمُوا، فيكلِّفُ مالاً أكثرَ.

إنَّ أيَّ تحوُّلٍ إلى الإسلامِ يحدثُ في هذه الأيامِ المبكِّرةِ يبدو على نحوٍ أكبرَ أنَّهُ باختيارِ الَّذينَ أسلمُوا فيستطيعونَ تخفيضَ ضرائبِهِمْ، وتحسينَ قدرتِهِمُ الاجتماعيَّةِ على التنقُّلِ، والانشغالَ بسهولةٍ أكبرَ في التجارةِ والحكمِ. ولكنْ لبضعةِ عقودٍ، حتَّى التحوُّلُ الطوعيُّ لا يحرِّرهُمْ من الضريبةِ الدينيَّةِ. بلِ الَّذينَ يحتفظونَ بدينِهمُ القديمِ، يمكنُهمْ بناءُ أماكنِ عبادتِهمُ الخاصَّةِ، مع أنَّها لا يمكنُ أنْ تكونَ أطولَ من مسجدٍ. لكنَّ الانتقالَ إلى دينٍ جديدٍ والكفرِ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أمرانِ محرَّمانِ.

هذا العنصرُ المنسيُّ للتسامحِ الإسلاميِّ بالنسبةِ للأديانِ الأخرى يظهرُ في الوصفِ التالي لعمليَّةِ الاستيلاءِ الإسلاميَّةِ واستيعابِ الإسكندريَّةِ البيزنطيَّةِ، وكيفَ يتعاملُ المسلمونَ مع البطريركِ المسيحيِّ القبطيِّ "بنيامين"، كما رواهُ مؤرِّخٌ قبطيٌّ منسيٌّ:

> **عندئذٍ كتبَ عمرو بنُ العاصِ إلى أقاليمِ مصرَ رسالةً، قالَ فيها: "هناكَ حمايةٌ وأمنٌ للمكانِ حيثُ يوجدُ بنيامينُ، بطريركُ المسيحيِّينَ القبطيِّينَ، وسلامٌ من اللهِ؛ لذلك دعْهُ يأتي آمناً وهادئاً، ويديرُ شؤونَ كنيستِهِ، وحكومةَ أمَّتِهِ." لذلكَ لمَّا سمعَ بنيامينُ المقدَّسُ هذا، عادَ إلى الإسكندريَّةِ بفرحٍ كبيرٍ، متوَّجاً بتاجِ الصَّبرِ والصِّراعِ المؤلمِ الَّذي أصابَ الأرثوذكسيِّينَ خلالَ اضطهادِهِمْ من الزنادقةِ، بعدَ أنْ كانَ غائباً طوالَ ثلاثَ عشرةَ سنةً، عشرٌ منها سنواتُ هرقلَ، الرومانيِّ الكافرِ، مع السنواتِ الثلاثِ قبلَ أنْ يفتحَ المسلمونَ الإسكندريَّةَ. لمَّا ظهرَ بنيامينُ، ابتهجَ الناسُ والمدينةُ كلُّها، وأعلنَ وصولَهُ إلى سانوتيوسَ، الدَّوقِ الَّذي آمنَ بالمسيحِ، وقرَّرَ مع القائدِ عمرٍو أنَّ البطريركَ يجبُ أنْ يعودَ، واستلمَ إذنَ عبورٍ آمنٍ من عمرٍو لهُ. بعد ذلك ذهبَ سانوتيوسَ إلى القائدِ وأعلنَ أنّ البطريركَ وصلَ، وأعطى عمرٌو**

الأوامرَ بأنْ يُحضَرَ بنيامينُ أمامَهُ بالتكريمِ والتبجيلِ والحبِّ. ولمَّا رأى عمرٌو البطريركَ، استقبلَهُ باحترامٍ، وقالَ لرفاقِهِ وأصدقائِهِ الخاصّينَ: "في جميعِ الأراضي الَّتي استولَينا عليها حتى الآنَ لم أرَ حقاً رجلاً متديّناً مثلَ هذا الرجلِ." لأنَّ البطريركَ بنيامينَ كانَ وسيمَ الطلعةِ، رائعاً في الخطابةِ، يناقشُ بهدوءٍ ووقارٍ.

ثمَّ استدارَ عمرٌو، وقالَ له: "استأنفْ حكمَ جميعِ كنائسِكَ وشعبِكَ، وأدِرْ شؤونَهُمْ. وانْ كنتَ ستصلّي من أجلي، لأنَّني قد أذهبُ إلى الغربِ وإلى بنتابوليسَ، وأستولي عليها، كما فعلتُ في مصرَ، وأعودُ إليك بأمانٍ وسرعةٍ، فسأفعل من أجلكَ كلَّما ستطلبُهُ منّي." ثمَّ صلَّى بنيامينُ المقدَّسُ من أجلِ عمرٍو، وألقى خطبةً بليغةً، جعلتْ عَمْراً والحاضرينَ معه يتعجَّبونَ، واحتوتْ على كلماتِ نصحٍ وكثيرٍ من الفائدةِ للذينَ سمعُوهُ؛ وكشفَ بعضَ الأمورِ لعمرٍو، وغادرَ من أمامِهِ مكرَّماً وموقَّراً. وكان كلُّما قالهُ البطريركُ المباركُ إلى القائدِ عمرِو بنِ العاصِ حقيقياً، وما منْ حرفٍ منه لم يتحقَّقْ.

هذه السياسةُ من التسامحِ الدّينيّ المشتركِ ستؤشّرُ بدايةً تقليدَ التعايشِ الإسلاميّ مع المسيحيّينَ واليهودِ والهندوسِ والأديانِ الأخرى الَّتي ستستمرُّ في الأماكنِ ذاتِ الأكثريَّةِ المسلمةِ حتى القرنِ الحادي والعشرينَ.

أما بالنسبةِ إلى الإسلامِ نفسِهِ، ففي عامِ 661م يجري حدثٌ خطيرٌ، سيقسمُ أتباعَهُ إلى الأبدِ. مع تجاوزِهِ عام 632م حينَ اختير أبو بكرٍ ﷺ أوَّلَ خليفةٍ، يصبحُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ خليفةً أخيراً عامَ 656م. ولكنْ في عامِ 661م، يُخلَعُ عليٌّ ﷺ ويُقتَلُ، ويصبحُ معاويةُ ﷺ الَّذي ينتسبُ إلى عشيرةٍ مكّيَّةٍ منحدرةٍ من أميَّةَ خليفةً. ويظلُّ بعضُ الأتباعِ مخلصينَ لعليٍّ ويرفضونَ بشكلٍ صريحٍ قَبُولَ الخليفةِ الجديدِ. وأصبحُوا معروفينَ باسمِ الشّيعةِ، من تعبيرِ شيعةِ عليٍّ، أو "أتباعِ عليٍّ" وأصبحَ مؤيّدُو معاويةَ معروفينَ بالسُّنَّةِ، من كلمةِ سنَّةٍ، أو من "الكلماتِ والقدوةِ التي وضعَها النَّبيُّ ﷺ" وتُعرَفُ سلالتُهمْ باسمِ الأمويّينَ.

وفي تحرُّكٍ خطيرٍ آخرَ، مع أنَّهُمْ من الجزيرةِ العربيَّةِ، يختارُ الأمويُّونَ مغادرةَ المركزِ الدينيّ في مكَّةَ ووضْعَ مركزِهِمُ السياسيّ والتجاريّ في المدينةِ البيزنطيَّةِ القديمةِ دمشقَ.

لماذا يقرّرُ هؤلاءِ الأبناءُ الموالونَ لمكَّةَ أنْ يُدِيرُوا ظهورَهمْ للمدينةِ المقدَّسةِ، وإمبراطورتيهم تنمُو؟ على الأغلبِ لأنَّهُ ولوتقدَّمَ عربُ الصحراءِ، فإنَّهُمْ كانوا قليلي العددِ نسبياً. وتبدأ

مناصبُهمْ تمتلئُ بأشخاصٍ متعلِّمينَ رسمياً أكثرَ من مصرَ وسوريا وفلسطينَ والعراقِ، بالإضافةِ إلى المتحدِّثينَ الفرسِ والبيزنطيّينَ والأتراكِ من آسيا الوسطى. ويتدفَّقُ الرجالُ الَّذينَ رأَوا وعرفُوا المدنَ الإمبراطوريَّةَ الغنيَّةَ والقديمةَ ومجتمعاتِ الإسكندريَّةِ ودمشقَ وتيسيفونَ الفارسيَّةِ والقدسَ في مناصبِ المسلمينَ العربِ، جالبينَ معهُمْ أذواقَهمْ وأفكارَهمْ وقصصَهُمْ ولغاتِهِمْ. ويكونُ العربُ متلهِّفينَ لتقبُّلِ جميعِ هؤلاءِ الناسِ الجددِ وخبرتِهِمْ؛ لأنه ليسَ من الضروريّ إدارةُ عالمِ الإسلامِ المتوسِّعِ فحسبُ، لكنَّهُ يبدُو أنَّهُ يعكسُ الأوامرَ المباشرةَ للنّبيّ، والتي تقولُ: "اطلبُوا العلمَ ولو في الصِّينِ".

هذه الإستراتيجيَّةُ الإسلاميَّةُ العربيَّةُ الأوليَّةُ في التحسينِ والاستيعابِ، والتعطُّشُ للمعرفةِ والخبرةِ، ستضعُ أساسَ الازدهارِ المستقبليّ للعصورِ الذهبيَّةِ الإسلاميَّةِ المختلفةِ، بدايةً في الأراضي العربيَّةِ والأندلسِ وبلادِ فارسَ، ثمَّ في آسيا الوسطى والهندِ، وأخيراً في الأناضولِ والهندِ المغوليَّةِ.

وإنْ أخذتْ خريطةُ العالمِ وقناعاتُ الرجالِ والنساءِ تتحوَّلُ، فهذا لم يكنْ يعني أنَّ هذه السنواتِ المئةَ الأولى من التحسينِ والتوحيدِ الإسلاميّ بعدَالنَّبيّ ﷺ أدخلتِ السلوكَ القدسيَّ في أساليبِ الرجالِ. فهذه الفترةُ، كما في جميعِ أجزاءِ العالمِ، هزَّتْها الصراعاتُ السياسيَّةُ والانقلاباتُ العسكريَّةُ والاغتيالاتُ والاستياءُ والثأرُ والتي تتفجَّرُ أحياناً في حربٍ أهليَّةٍ. لكنَّ هذا الاضطرابَ والاستيعابَ يبدأ أيضاً بإنتاجِ ثقافةٍ هجينةٍ فريدةٍ، عربيَّةٍ اسميَّاً لكنَّها مزيجٌ متنوّعٌ وغنيٌّ، بالمعرفةِ والثراءِ من بلادِ فارسَ، والتعلُّمِ والفخامةِ من بيزنطةَ، ومن أصداءِ اليونانِ وروما.

هذا التراثُ وحجمُ المعرفة اللذانِ انتقلا من البيزنطيّينَ والفرسِ إلى أتباعِ النَّبيّ ﷺ سيبدوانِ ضخمينِ بعد قليلٍ عند ازدهارِ العصرِ الذهبيّ الإسلاميّ الأوَّلِ. وبالأهميَّةِ نفسِها تماماً، تبدأُ لغةُ الشِّعرِ الكلاسيكيّ العربيّ بالتَّحوُّلِ إلى لغةِ التخاطبِ المشتركِ في العالمِ الجديدِ، واللغةِ الوحيدةِ للمناقشةِ والتعبيرِ الدينيَّينِ، وتتزايدُ أهمِّيتُها بالنسبةِ إلى التجارةِ والأدبِ والحياةِ العاديَّةِ. ويبدأ الفرسُ والسوريُّونَ والبيزنطيُّونَ والبربرُ والعديدُ من الآخرينَ تحتَ الحكمِ الإسلاميّ في تعلُّمِ اللغةِ العربيَّةِ.

ويستمرُّ إعصارُ التوسُّعِ الإسلاميّ العربيّ مدةَ مئةِ سنةٍ. وتُخرِجُ جيوشُ الخليفةِ القوطيّينَ الغربيّينَ من شمالِ أفريقيا، وبحلولِ عامِ 711م، تحتَ قيادةِ المولى البربريّ المحرّرِ طارقِ بنِ زيادٍ، تغزُو قوَّةٌ مختلطةٌ من العربِ والبربرِ وتفتحُ إسبانيا القوطيَّةَ الغربيَّةَ. وبعدَ سنةٍ، في عامِ 712م، يتقدَّمُ المسلمونَ داخلَ السِّنْدِ في باكستانَ المعاصرةِ التي نعرفُها الآنَ باسمِ آسيا الوسطى، ثمَّ دُعِيتْ باسم ترانسوكسيانا.

ويقولُ بعضُهمْ إنَّ غزوَ إسبانيا كان بتحريضِ مسيحيّينَ إيبيريّينَ معارضِينَ يحاولونَ اجتذابَ المسلمينَ شمالاً كحلفاءَ في حربٍ أهليَّةٍ عشائريَّةٍ ضدَّ الملكِ الحاكمِ رودريك. وكانت إسبانيا القوطيَّةُ الغربيَّةُ واقعةً في اضطرابٍ كبيرٍ بسببِ قضايا فئويَّةٍ وحملةٍ من الحكَّامِ ضدَّ اليهودِ العديدينَ في المملكةِ. وكانتِ الأقليَّةُ القوطيَّةُ الغربيَّةُ تحكمُ بطريقةٍ قاسيةٍ وجشعةٍ، وتستبدُّ بسكانٍ محلّيّينَ قلقينَ انحدرُوا من العصورِ الرومانيَّةِ وما قبلها. وقامَ الحكَّامُ القوطيُّونَ الغربيُّونَ بالقليلِ لكسبِ رعاياهمُ اللاتينيينَ، وتستمرُّ إيبيريا في الركودِ المدنيّ والاقتصاديّ نفسِهِ والناجمِ عنِ انهيارِ روما الَّذي تعاني منه غالبيَّةُ أوروبا.

ومع ذلك فإنَّ الأميرَ المسلمَ في شمالِ أفريقيا، موسى بنَ نصيرٍ، لا يزالُ حذراً. ويفكّرُ فيما إذا كانَ يُجَرُّ إلى فخٍّ، ويتساءلُ إنْ كانت إيبيريا تستحقُّ العناءَ. ويرسلُ إلى هناكَ قوَّةً صغيرةً لتقصّي الدفاعاتِ ولا يجدُ أيَّاً منها تقريباً. لذلكَ يرسلُ قائدَهُ المخلصَ طارقاً ليتولَّى قيادةَ حملةٍ تؤسّسُ موطئَ قدمٍ.

وسيكونُ تعبيرُ موطئِ القدمِ تقليلاً من حقيقةِ الأمرِ. ينزلُ طارقٌ في ما سيُعرَفُ لاحقاً باسمِ جبلِ طارقٍ، وسُمّيَ منذُ ذلك اليومِ بهذا الاسمِ، في 30 أبريل/نيسان 711م. لديهِ جيشٌ صغيرٌ تعدادُهُ ربَّما 7000، مكونٌ من بضعةِ عربٍ من سوريا ومن العديدِ من مواطنيهِ البربرِ. وعندَ نزولِهِ، يُقالُ إنَّهُ أخبرَ رجالهُ:[13]

> **أيهُّا الناسُ أينَ المفرُّ؟! البحرُ من ورائِكُمْ والعدوُّ أمامَكُمْ، وليسَ لكمْ واللهِ إلَّا الصِّدقُ والصَّبرُ. واعلمُوا أنَّكُم في هذه الجزيرةِ أضيعُ من الأيتامِ في مأدبةِ اللئامِ. وقدِ استقبلَكُمْ عدوُّكُمْ بجيشِهِ، وأسلحتِهِ وأقواتُهُ موفورةٌ، وأنتمْ لا وزَرَ لكمْ إلا سيوفُكُمْ، ولا أقواتَ إلا ما تستخلصُونَهُ من أيدي عدوِّكُمْ. وإنِ امتدَّتْ بكمُ الأيامُ على افتقارِكُمْ ولم تُنجِزُوا لكمْ أمراً ذهبَ ريحُكُمْ**

وتعوَّضَتِ القلوبُ من رعبِها عنكُمُ الجرأةَ عليكُمْ. فادفعُوا عن أنفسِكمْ خذلانَ هذه العاقبةِ من أمركمْ بمناجزةِ هذا الطاغيَّةِ. فقد ألقتْ به إليكُمْ مدينتُهُ الحصينةُ، وإنَّ انتهازَ الفرصةِ فيه لَممكِنٌ إنْ سمحتُمْ لأنفسكُمْ بالموتِ. وإنِّي لم أحذِّركمْ أمراً أنا عنهُ بنجوةٍ، ولا حملتُكمْ على خطَّةٍ أُرخِصَ فيها متاعَ النفوسِ إلا وأنا أبدأ بنفسِي.

واعلمُوا أنَّكمْ إنْ صبرتمْ على الأشقِّ قليلاً استمتعتُمْ بالأرفهِ الألذِّ طويلاً. فلا ترغبُوا بأنفسِكمْ عن نفسِي فما حظُّكمْ فيه بأوفرَ من حظِّي. وقد بلغَكمْ ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الخيراتِ العميمةِ. وقدِ انتخبكُمُ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ أميرُ المؤمنينَ من الأبطالِ عُرباناً. ورضيَكمْ لملوكِ هذه الجزيرةِ أصهاراً وأختاناً، ثقةً منه بارتياحِكمْ للطِّعانِ. واستماحَكمْ بمجالدةِ الأبطالِ والفرسانِ. ليكونَ حظُّهُ منكُمْ ثوابَ اللهِ على إعلاءِ كلمتِهِ وإظهارِ دينِهِ بهذهِ الجزيرةِ، وليكونَ مغنمُها خالصةً لكمْ من دونِهِ ومن دونِ المؤمنينَ سواكُمْ.. واللهُ تعالى وليُّ بإنجادِكُمْ على ما يكونُ لكم ذكراً في الدَّارينِ.

واعلمُوا أنِّي أوَّلُ مجيبٍ إلى ما دعوتُكمْ إليهِ، وإنِّي عند ملتقَى الجمعينِ حاملٌ بنفسي على طاغيةِ القومِ لذريقَ فقاتلَهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى. فاحملُوا معي فإنْ هلكتُ بعدَهُ فقد كُفِيتُم أمرَهُ ولم يُعوزْكمْ بطلٌ عاقلٌ تسندونَ أمورَكمْ إليهِ. وإنْ هلكتُ قبلَ وصولِي إليه فاخلُفوني في عزيمتِي هذه واحملُوا بأنفسِكمْ عليهِ واكتفُوا الهمَّ من فتحِ هذه الجزيرةِ بقتلِهِ.

ويشقُّ طارقٌ ومقاتلُوهُ طريقَهمْ شمالاً وبحلولِ الصَّيفِ يهزمونَ رودريك وجيشَهُ تماماً في بلدةِ غواديليت عندَ حصنِ ريو، تاركينَ الطريقَ مفتوحاً لغزوِ إسبانيا الكليِّ الوشيكِ في العقد التالي. وثمَّةَ إشاعاتٌ بأنَّ هزيمةَ القوَّاتِ القوطيَّةِ الغربيَّةِ الأكبرِ عدداً تكتملُ لمَّا ينتقلُ العديدُ منهم من طرفٍ إلى آخرَ في ذروةِ المعركةِ، ربَّما بسببِ الاستياءِ من حكَّامِهمْ. ويسلكُ طارقٌ طريقَهُ شمالاً مستولياً على غنيمةٍ مهمَّةٍ، ولمَّا يصلُ خبرُ هذا إلى مولاهُ موسى بنِ نصيرٍ في شمالِ أفريقيا، يطلبُ الأميرُ تفسيراً فوراً. وفي اجتماعٍ مذلٍّ، يجدِّدُ طارقٌ ولاءَهُ لموسى ويسلِّمُ الغنيمةَ، بما في ذلك طاولةٌ ومقاعدُ قوطيَّةٌ غربيَّةٌ من الزمرُّدِ المغطَّى باللؤلؤِ من المفترضِ أنَّها تساوي 200000 دينارٍ، والتي توقَّعَ العديدُ من الجنودِ البربرِ أنْ يتمَّ تقسيمُها بينهم.

وتصلُ هذه النجاحاتُ الإسلاميَّةُ المستمرَّةُ في الغربِ الأقصى تدريجياً بواسطةِ الساعي والمبعوثِ إلى الخليفةِ في دمشقَ، وتشقُّ رواياتٌ مختلفةُ الدقةِ طريقَها عبر امتدادِ الخلافةِ. إنَّهمْ

يرسلونَ تقاريرَ بأحداثٍ تبعدُ آلافَ الأميالِ وكما يبدو تبعدُ عنِ الَّذينَ يشكِّلونَ جنودَ هذا المجتمعِ الجديدِ الواسعِ. لكنَّ المعنى الإنسانيَّ يبلُغُ كلَّ شخصٍ بالوطنِ في يومٍ شتائيٍّ صافٍ جداً في دمشقَ عام 715م.

ويميِّزُ حدثانِ رئيسانِ هذا التاريخَ في دمشقَ: الإكمالُ النهائيُّ للمسجدِ الأمويِّ الضخمِ وزيارةٌ لا تُنسَى إطلاقاً من موسى بنِ نصيرٍ أميرِ شمالِ أفريقيا لرؤيةِ الخليفةِ الوليدِ. ويقدِّمُ الأميرُ إلى الخليفةِ 40 أسيراً قوطيًّاً غربيًّاً من النُّبلاءِ وحاشيةِ البلاطِ، وعدداً أكبرَ من أتباعِهمُ السبِّيِّ الحظِّ الَّذين أُحضِرُوا إلى هناكَ من إسبانيا. ومع هتافاتِ المسلمينَ الجددِ والمواطنينَ في دمشقَ، يُطلَبُ من هؤلاءِ الأسرى تقديمُ الاحترامِ إلى الخليفةِ. ومن حيثُ المدى والأهميَّةُ، تحملُ هذه المراسمُ العامَّةُ أصداءً عميقةً للعديدِ من المراسمِ المماثلةِ في روما القديمةِ والقسطنطينيَّةِ.

وبحلولِ عام 732م في الغربِ الأقصى، بعدَ 100 سنةٍ فقط من وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، لم يعزِّزْ أتباعُهُ سيطرتَهُمْ بشكلٍ كبيرٍ على شبهِ الجزيرةِ الإيبيريَّةِ فحسبُ، بل أسَّسُوا مراكزَ أصغرَ تحتَ حكمِ أمراءَ محلِّيينَ في جنوبِ فرنسا. ويتمُّ إنشاءُ العديدِ منها بمغامراتٍ مستقلَّةٍ بدلاً من أيِّ غزوٍ رسميٍّ منسَّقٍ. وغالباً ما يؤسِّسُ الأمراءُ المحليُّونَ ولاءَهم بالزواجِ من طبقةِ النُّبلاءِ المسيحيِّينَ المحلِّيينَ. وإنْ كانَ المشهدُ الاقتصاديُّ والسياسيُّ المفصَّلُ للخلافةِ في إسبانيا وفي كلِّ مكانٍ يبدُو شبيهاً بشبكةِ دولِ مدنٍ أكثرَ من الدولِ القوميَّةِ الحديثةِ، فإنَّهُ بحلولِ عامِ 732م، في الحقيقةِ، وُجِدَ عالمٌ إسلاميٌّ واسعٌ بمقرِّ سلطتِهِ النهائيِّ في دمشقَ. ويمتدُّ من إسبانيا في الغربِ إلى الامتداداتِ البعيدةِ حتى منغوليا، ومن جنوبِ فرنسا في الشمالِ إلى المحيطِ الهنديِّ وأفريقيا في الجنوبِ.

ويعلِّمُ التاريخُ الضائعُ أنَّ هذا اللقاءَ الأوَّلَ الحاسمَ بينَ البرِّ الرئيسِ في أوروبا والمسلمينَ كان أكثرَ تعقيداً بكثيرٍ من صراعِ الحضاراتِ أو حربِ الأديانِ. وبالنسبةِ إلى الأوروبيِّينَ كان يُعدُّ صدمةً للأبعادِ التوراتيَّةِ السَّائدة، ومع ذلك كانَ أيضاً بدايةَ تلقِّيهِمْ للتقنيةِ والأفكارِ المتفوِّقةِ من المسلمينَ. وبالنسبةِ إلى المسلمينَ العربِ، ميَّزتْ هذه الفترةَ نهايةُ مرحلةِ غزوِهِمْ وحرَّرتْهُمْ لتحويلِ طاقاتِهِمْ نحوَ الاختراعِ والإبداعِ. وإنْ كانتْ إنجازاتُهُمُ العسكريَّةُ مدهشةً حقًّاً، فإنَّ إبداعاتِهِمُ الفكريَّةَ أثبتتْ أنَّها أعظمُ.

ثبتٌ بالمراجعِ

- العتر، نورُ الدين. القرآنُ الكريمُ والدِّراساتُ الأدبيَّةُ (دمشق: المطبعةُ الجديدة، 1985).
- الكزبري، سلمى الحفَّار وآخرونَ. إسبانيا: أصواتٌ وأصداءٌ عربيَّةٌ (الكويت: كتابُ العربيِّ، 1999).
- طوقان، قدري حافظ. علماءُ العربِ وما أعطَوهُ للحضارةِ (بيروت: دارُ الكاتبِ العربيِّ، من دونِ تاريخٍ).
- زيادة، نقولا. قممٌ من الفكرِ العربيِّ الإسلاميِّ (بيروت: الدارُ الأهليَّةُ للنَّشرِ والتَّوزيعِ، 1987).
- مورغان، مايكل هاملتون. التاريخُ الضائعُ لأعلامِ المسلمينَ، ترجمه فؤاد عبد المطلب (عمان: وزارة الثقافة، 2016).
- Morga, Michael Hamilton, Lost History: The Enduring Legacy of Muslim Scientists, Thinkers, and Artists (Washington: National Geographic, 2008).
- https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_Hamilton_Morgan

(References)

([1])- استفدتُ في التقديمِ من بعضِ النقاطِ التي تتعلَّقُ بسيرةِ المؤلفِ وكتابهِ والتعليقاتِ عليه من المادةِ الموجودةِ في صفحته الإلكترونيَّةِ على الشبكةِ العنكبوتيَّةِ 2010. *https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_Hamilton_Morgan*(المترجم)

([2])- ولد ديوسقوريدس في القرنِ الميلاديِّ الأولِ في بلدةِ "عين زَرْبَة" (جنوبَ شرقِ آسيا الصغرى)، ودرسَ الصيدلةَ في طرسوسَ، وزارَ اليونانَ ومصرَ وكريت وبترا. ألفَ كتابَهُ "مادَّةُ الطبِّ" الَّذي يبحثُ في خصائصِ الحشائشِ عام 65 ميلادي باللغةِ الإغريقيَّةِ، لكنَّهُ اشتُهِرَ باللغةِ اللاتينيَّةِ.(المترجم)

([3])- لمزيدٍ من التفاصيلِ، انظر: د. سلمى الحفار الكزبري وآخرين، إسبانيا: أصواتٌ وأصداءٌ عربيَّةٌ، الكويت: كتاب العربي، 1999م(48).
Dr. salma Al-ḥaffār Al-kuzbarī: Isbānīā: Aṣwāt ūʾAṣdāʾ Aʿrabīaaï (P: 48).

([4])- انظر: المرجع السابق (71).

Ibid. (P: 71).

([5])- انظر: المرجع السابق (50-51).

Ibid. (P: 50-51).

([6])- لمزيدٍ من التفاصيلِ، انظر: قدري حافظ طوقان، علماءُ العربِ وما أعطَوهُ للحضارةِ، بيروت: دار الكاتب العربي، من دون تاريخ (104-111).

Qadrī ḥāfiẓ ṭūqān: Uʿlamāʾ Al-aʿrb ūmā Aʿṭūhu lelḥaḍārataï (P: 104-111).

([7])- انظر: المرجع السابق (97-103).

Ibid. (P: 97-103).

([8])- لبعضِ التفاصيلِ عنِ ابنِ سينا وكتابِهِ، انظر: نقولا زيادة، قممٌ من الفكرِ العربيِّ الإسلاميِّ، بيروت: الدار الأهليَّة للنشر والتوزيع، 1987م (49-55).

Neqūlā Ziādaï: Qemam Men Al-fekr Al-aʿrabī Al-islāmī (P: 49-55).

([9])- لمزيدٍ من التفاصيلِ عن جهودِ البيرونيِّ وكتبِهِ، انظر: المرجع السابق (93- 98).

Ibid. (P: 93-98).

([10])- ديانة تعبد مِترا: إله النور وحامي الحقيقة وعدو قوى الظلام عند الفُرس. (المترجم)

([11])– من المعروفِ أنَّ جمعَ القرآنِ الكريمِ بدأ من عهدِ أبي بكرٍ، لذلك يبدو أنَّ ما قصدَهُ المؤلفُ هو مصحفُ عثمانَ لا الجمعُ. ويمكنُ العودةُ إلى كثيرٍ من الكتبِ في هذا المجالِ، مثلُ كتابِ: نور الدين العتر، القرآنُ الكريمُ والدراساتُ الأدبيَّةُ، دمشق: المطبعة الجديدة، 1985م (36 وما بعدها). (المترجم)

Nūr Al-ddīn Al-eʿtr: Al-qurʾān Al-karīm Wālderāsāt Al-ʾadabīï (P: 36).

([12])– هذه مجموعةُ أحاديثَ شريفةٍ وُضِعتْ في سياقِ حديثٍ واحدٍ، وهي موجودةٌ في كتبِ الحديثِ (في فضل طلبِ العلمِ)، تُرجمت إلى العربيَّةِ بحسب النصِّ الإنكليزيِّ. (المترجم)

([13])– أوردتُ هنا النصَّ الأصليَّ لخطبةِ طارقٍ كما وردتْ في المصادرِ العربيَّةِ والمختلفِ قليلاً عنِ النصِّ الإنكليزيِّ. (المترجم)